

عزیزى رفعت

”الكتابة كمداد للتعافى“



المسك للنشر والتوزيع

الكتاب: عزيزي رفعت

المؤلف: سارة درويش

التصنيف: رسائل

عدد الصفحات: 168

الطبعة الأولى

1443 هـ - 2021 م

رقم الإيداع: *** / 2021

الترقيم الدولي: * - * - 6868 - 977 - 978

التدقيق اللغوي

والتجهيزات الفنية:

المسك

الغلاف:

ياسمين ناصر

مخطوطة
بمخطوطة

الناشر: المسك للنشر والتوزيع

العنوان: 9 شارع الجهاد - ميدان لبنان - المهندسين

موبايل: 01551241659 / واتس: 01200075730

E-mail: misk4book@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر، بل تعبر عن رأي المؤلف في المقام الأول.

عزیزی رفعت

“الكتابة كَمحاولة للتعافي”

رسائل

سارة درويش



المسك للنشر والتوزيع

2021

إهداء

إلى رفعت بالطبع!

من تلك الفتاة الصغيرة الوحيدة التي كنت تؤنسها بحكاياتك في
طفولتها ومراهقتها وشبابها؛ فلجأت إليك لتطمئنّها وتهدهد خوفها حين
افترض العالم أنها كبرت.

المخلصة..

سارة

إهداء

لكل من قرأ حرفاً من هذه الرسائل وشعر أنها تمسه..
كل الأصدقاء الذين اكتسبتهم من خلالها..
كل الأحباء الذين شجعوني على الاستمرار، ومن آمنوا أنها تستحق
أن تطبع على هذا الورق.

عن الكتابة كمحاولة للتعافي

فبراير ٢٠١٥ كان قاسياً عليّ، كشهور وأعوام عدة سبقتها. في تلك السنوات شعرت بفجوة مرعبة بيني وبينني، فجوة لم أشعر بها من قبل، وكأن روحي داخل جسدي محاصرة بفراغ أسود مفزع، تسقط فيه كل الأشياء المبهجة، وحتى المحزنة، التي أستقبلها وتضيع للأبد قبل أن تصل لروحي وتؤثر فيها، كنت متبلدة تماماً.

في فبراير ٢٠١٥ قررت أن أبدأ الكتابة لرفعت، الذي قد يعرف البعض أنه «رفعت إسماعيل» بطل سلسلة روايات «ما وراء الطبيعة». لم أكتب لرفعت لأنه كان لسنوات طويلة «فتى أحلامي» - قبل أن أكتفي بصداقته لأنه لم ينسَ ماجي أبداً- ولكن لذلك السبب الذي أحبه لأجله جميع من عرفوه؛ لأنه ذلك الشخص الذي لا تخجل أن ترتجف أمامه كطفل، وتعتز بأنك خائف وضعيف، هو ذلك البطل الذي لم يتظاهر بالبطولة أبداً، ويمكنك أن تعترف أمامه كقديس بكل آثامك.

حين كتبت لرفعت كان لدي الكثير من المشاعر الحبيسة، المخاوف الساذجة والشكاوى التي لا يعابأ بها أحد، فضلاً عن شعور قاسٍ بأن الحديث -في هذه الحالة النفسية- مع آخر يعني أنك تقدم لهذا الآخر حبل مشنقتك على طبق من ذهب، كنت أشعر بالخوف والضالة والضياع الشديد رغم أنني أدور في مسار محدد ربما أكثر من اللازم.

حين كتبت الرسالة الأولى كنتُ أشعر بوحدة شديدة رغم وجود الكثيرين من حولي، ليس لأنهم ليسوا جيدين بما يكفي، ولكن لأنني في ذلك الوقت كنت فاقدة للقدرة على التعبير عن مشاعري، فقدت القدرة

حتى على تحديدها ومعرفة ما يزعجني، كانت الصورة تبدو مثالية تمامًا رغم شعوري الواضح والقوي بالخلل.

حين بدأت توقعت ألا أكتب أكثر من رسالتين أو ثلاثة ثم أمل وأنسى الموضوع كعادي، ولكنني رسالة بعد أخرى أصبحت أشعر بالراحة. في البداية كنت أستخدم الكتابة كوسيلة لتحفيز دموعي لأنفس عن نفسي وفقط، ثم أصبحت أرتب من خلالها أفكار، وبعد المزيد من الوقت أصبحت أجد من خلالها «الونس»، أجد من يشاركونني المخاوف والهواجس والألم نفسه وحتى الأسئلة. وبعد سنوات أصبحت الرسائل تعني أنني أخيرًا بخير.

لم ألمس أبدًا ذلك التأثير المبهل للرسائل على روحي إلا بعد ما يقرب من عام، هذه الرسائل منحتني السلام، جعلتني أقرب لنفسي، جعلتني أتخفف من الكثير من الضغوط والمخاوف، وغيّرت حتى الطريقة التي أنظر بها لنفسي، ولألمي.

الآن بعد ٦ أعوام من كتابة الرسائل أظن أنها كانت تشبه مقاطع الضجيج الأبيض المنتشرة على الإنترنت، صوت خافت يبعث فينا الطمأنينة ويفصلنا عن العالم من حولنا فنخلد للنوم كطفل، أو نتمكن من التركيز في عملنا بعيدًا عن كل الصخب الذي يحاصرنا.

بعد ٦ أعوام لا أزعج أنني في حال مثالية، ولكنني على الأقل قادرة على التواصل مع نفسي، قادرة على التعبير عنها.

هامش: هذه الرسائل شخصية جدًا وربما لا تفيدك حين تقرأها بشيء؛ لكنها تجربة عمرها ستة أعوام مطروحة بين أصابعك ربما تدفعك للكتابة كمحاولة للتعافي.

الرسالة ١

لا أعرف لماذا قررت أن أكتب لك؟ أظن أنني أكتب إليك لأنني أقرأ خطابات الآخرين لمجهولين وتعجبني، فقررت أن أجربها. لا أعرف السر في أن كتابتنا الخطابات لشخص ما تجعل الحروف تنساب من بين أصابعنا كالسيل. أكتب إليك لأنني أودُّ الهرب ولا أجرؤ عليه، ولا أعرف إلى أين أذهب، لأنني حزينة وتعيسة دون أي أسباب قوية لذلك.

أكتب الآن وأنا أشعر برغبة مُلحة في البكاء دون سبب، أو لأسباب أعجز عن ترتيبها في كلمات، ومللت البكاء بين أيدي أصدقائي الذين لا أزيدهم إلا بُؤساً. كل مرة يفزعون لأجلي، يهتمون بي، ويفتشون في كلماتي عن سببٍ للحزن وللرغبة في البكاء فلا يجدون، يشعرون أن هناك ما أخفيه عنهم، ورغم ذلك يربتون -افتراضياً- على كتفي، أشعر بالخجل من حنانهم فأسكت، أشعر بالخجل من حزني فأكتمه، ولكنني حزينة.

تقول صديقتي: «أنتِ حزينة لأجل أوغاد لا يستحقون أن تهتمي لأمرهم، أو للدقة، لأجل وغدٍ واحد»، ولكن الحقيقة أنني حزينة لأجل نفسي، أصرخ للمرة المليون كطفل حفاضته مبللة ولا أحد ينتبه له، يحتاج على هذا الإهمال الذي يرى أنه لا يستحقه، ويؤلمه! أنا لا أستحق كل هذا الإهمال.

أبكي أحياناً ليهتم أحد، ثم أبكي لأنني مضطرة للبكاء كي يرونني! أخشى أن أكون مختلة، مريضة بتسؤل الاهتمام تماماً مثل هؤلاء الذين حاكمتهم داخلي ولعنتهم لأنهم يفعلون كل شيء لتسؤل الاهتمام.

أكتب إليك لأنني أشتاق للكتابة، للأريحية التي كنت أرسم بها نفسي على الورق فلا أنسى ملامحي أبدًا مثل الآن، أنا الآن لا أعرف من أنا؟ لا أستطيع تبين رغباتي ولا طباعي، ولا حتى تفسير انفعالاتي لنفسي، أكتب إليك لأنه ما من سبيل آخر للراحة، ولأنك لن تسمع، ولن ترد.

اليوم، في طريق العودة من العمل، التهمت ٣ أكياس من الشيبسي بعد ساعات قليلة فحسب من قراري بأنني سأقلع عن الأملح قدر الإمكان؛ لأنه يجب أن أحسن إلى جسدي أكثر، كنت ألتهم الشرائح بشراسة وشعور قاسٍ بالانتقام، أدهسها في فمي كمن يملأ فمه بقطع من الزجاج المكسور ليتخلص من حياته بأكبر قدر ممكن من الألم.

مع شرائح البطاطس كنت ألتهم الأرض بساقيّ وكأني أحاول أن أدهس شعوري بالقهر والغضب. بعد الكثير من المشي والكثير من التفكير في طريقة للخروج من هذا السجن، الذي هو حياتي اليومية، قررت أن أمارس الرياضة لأشد عضلات بطني لأن جسدي يستحق بعض الاهتمام، فأنا في الخامسة والعشرين من العمر ورغم ذلك ألهم أكثر منك عند صعود الطابق الرابع يا رفعت.

حين وصلت البيت، بدأت تنفيذ قراري ولكنني شعرت بالحزن لأنني في تمارين عضلة البطن كنت أرفع قدمي بصعوبة، وكأني أرفع جوالين من الرمل.

أنا حزينة يا رفعت لأنه ليس لدي الكثير من القدرة على الاستمتاع بالحياة، لأنني السجنان الوحيد لنفسي، حزينه لأنني لم أعد أستمتع إلا نادرًا بأي شيء. بعض الأكل، والقليل من الأفلام وحدها قادرة على إمتاعي. وكل ما هو سوى ذلك مجرد وسائل لقتل الوقت.

أنا حزينة لأنني أشعر بالجبين وأحياناً الخسة حين أفجّر نوبات غضبي
في وجه آخرين؛ لأنني عاجزة عن مواجهة المسؤولين الحقيقيين عن
غضبي، عاجزة عن الانسحاب والتحليق بحرية لأنني مُكبلة بمسئوليات
عدة.

هل تدرك ما أقوله يا صديقي؟ أنا فتاة في الخامسة والعشرين تقول
إنها مُكبلة بالمسئوليات، ولا تستطيع أن تتحمل تبعات رفض القهر الذي
يمارس ضدها، وتخشى المغامرة! أنا أردد بالضبط ما يقوله كهل خمسيني
لديه ٩ أطفال، ولا يملك أي موهبة لكسب العيش!

٢٠١٥-٢-١٦

الرسالة ٢

كان دائماً لديّ ذلك الحلم عن الحب: أن أركب قطاراً، ويراني أحدهم فيقع في حبي من النظرة الأولى، لدرجة أنه يقرر تغيير محطة وصوله ليلحق بي.

كبرت وأدركت أنني أشبه أفلام توم هانكس، ومن الصعب الوقوع في حبي من النظرة الأولى؛ لكنني ما زلت أحلم بأن يغير أحدهم لأجلي محطة وصوله وكل خطه فقط لنكون معاً. لا يكون معي فقط لأننا التقينا على ذات الطريق.

أتمنى أن يحبني أحدهم لدرجة أن أكون أكثر ما يريده في هذه الدنيا، أن يكتشف أنه الآن يعرف بدقة ما يريد، أن يحبني أحدهم لدرجة أن يلتقط لي عشرات الصور خلسة، وأن أكون في هذه الصور جميلة ليس فقط لأن من التقطها يحبني، ولكن لأن جسدي يشعر بالاطمئنان والراحة في وجوده، لدرجة أنه لا يرتبك وينكمش أمام العدسة.

أحلم بهذا الحب الذي يجعل أحدهم يراني كما لم يرني أحد قبله، لا لأن مرآة الحب عمياء، ولكن لأن تلك الكيمياء بيننا، أو ربما الحرارة، تجعل الوجه المرسوم بالحبر السري لكل منا يظهر في وجود الآخر.

ما زلت أحمل داخلي هذا الحلم يا صديقي، لكنني في الواقع أخشى الحب، أصبحت ألاحظ أن البدايات نفسها تتكرر، قلبي ينقبض ويسقط في قدمي ما إن أشعر بأحدهم يقترب، ودون أن أشعر أجذني أحارب لإبعاده،

ألتف حول نفسي وكأنني أتشيث بها، وتخبره كل تصرفاتي أنني مستقرة
تمامًا في مداري، لا أريده ولا أحججه.

أنا أخاف القرب بقدر احتياجي له، أنا التي اعتادت أن تستمد قوتها
من البعد، من جهل الآخر بنقاط ضعفها، من الأسوار العالية التي تبالغ في
تأمينها لأنها تعرف أن البيت وراء الأسوار دون باب.

أبالغ في التدقيق وفي الاختيار، وأنا لم أعد متأكدة هل أستحق ما
أريد؟ ليس في ما يخص الحب وحده، بل كل شيء. توقفت عن جلد ذاتي
منذ مدة، وليس هذا ما أحاول أن أفعله، ولكنني لم أعد أعرفها كذلك.

مر وقت طويل منذ المرة الأخيرة التي فككت فيها قلبي ومشاعري
وأفكاري قطعة قطعة، وتحسستها لأعرف من أنا؟ منذ وقت طويل وأنا
أتعامل مع نفسي كما أتعامل مع شعري المتشابك وأنا متعبة.. أمرر الفرشاة
بهدوء من السطح ليبدو على ما يرام، وأنا أعلم أن الوضع معقد جدًا في
الأسفل، ولكنني أعلم كذلك أن رأسي لن يحتمل ألم فض الاشتباك.

٢٠١٥-٢-١٨

الرسالة ٣

أنا سعيدة لاكتفائي بك، أصبحت أجد من خلال رسائلي إليك مهرّباً جيداً من الأوقات السخيفة في يومي، كلما حوصرت بالسخافات يهرب عقلي لا إرادياً إلى رسائلك، أراجع شريط يومي وأفكر.. عن أي شيء ستحدث الليلة؟

مسحت للتو عشرات السطور الفارغة التي لا تستحق أن أهدر فيها وقتك، ولا أرهق بها عينيك، أما الشيء المهم الذي ينبغي أن نتحدث عنه حقاً هو أنني أخشى كثيراً على رسائلك من الروتينية. في طريقي إلى المنزل كنت أفكر طويلاً كيف يمكنني المواظبة على روتين واحد لمدة ثلاثين يوماً؟ أنا أحببت جداً التجربة التي شاهدها في إحدى خطب «تيد» عن تجربة شيء جديد لمدة ٣٠ يوماً، وأحتاج حقاً لأن أفعل ٤ طقوس لمدة ثلاثين يوماً، من بينها هذه الرسائل إليك!

كيف أواظب على تدليل نفسي، وممارسة الرياضة، وتجربة بعض الصفات النسائية التي تشعرني حقاً بأنني أفعل شيئاً غير قتل نفسي لمدة ٣٠ يوماً؟ هل يمكنني أن أفعل ذلك حتى وأنا أشعر بالغضب وأريد أن آكل الحائط؟ هل يمكنني المواظبة على الحديث بينما تخنقني رغبة قاسية في البكاء؟ هل يمكنني الكتابة إليك يوم إجازتي؟ حين أهجر هذا الجهاز اللعين الذي يلتصق بأصابعي طوال ساعات استيقاظي على مدار الأسبوع؟ أنا مزاجية جداً يا صديقي - لو لم تلحظ ذلك - ويرهقني ذلك أكثر من أي شخص آخر في حياتي.

لا أخفي عليك، لا أريد التمسك بأيّ من الطقوس الأربعة قدر الكتابة لك، فحديثي إليك هو طريقة ملتوية للحديث إلى نفسي ولكن بحدة أقل.. مضت أكثر من ٤ أعوام منذ آخر مرة تحدثت فيها مع نفسي بالصراحة القديمة، أذكر جيداً شكل الصفحات الست اللاثي اكتسبن بالحبر الأحمر، حين تركت القلم يتحرك وحده، كأنه لم تعد لي سيطرة على العلاقة بين ذهني وقلمي، كانت التجربة قاسية، نكأت جروحاً عميقة وواجهت نفسي بوجه لي أظن أنني أخافه، وأعلم الآن أنني غير قادرة على مواجهته.

من خلالك أواجه نفسي من خلف ستار يحجب عني حديثها، لأنني في الوقت الحالي على الأقل، لن أحتمل مواجهة عاصفة كالقديمة، أنا الآن كمن ينزع الضمادات عن وجهه للمرة الأولى بعد حريق مرعب، وقبل أن يواجه ملامحه الجديدة أمام المرأة للمرة الأولى، يحاول أن يتحسس وجهه ليمهد لنفسه حجم الكارثة.

٢٠١٥-٢-١٩

الرسالة ٤

كيف يمكن لشعورنا بالعمر أن يكون مخادعًا لهذه الدرجة يا صديقي؟
كيف أرتد لطفولتي في ثوانٍ حين أتعثّر في واحدة من صديقاتي بالمدرسة
الابتدائية، ثم أشيخ في لحظة بمجرد أن أودع أُمّي على باب الشقة، لأعود
مجددًا، فتاة عاملة كبيرة ومسئولة وليست «آخر العنقود» المدللة؟

المؤسف أنه ليس لي بينهم عمر ألوذ به، ليس لديّ وقت سعيد بشكل
مطلق أتمنى الهرب إليه، أظن أنه حتى لو توفرت آلة للزمن لن يمكنني
العودة إلى زمنٍ مضى، ويبدو أنني لن أتمنى الهرب للمستقبل، وحتى
لحظات السعادة التي عشتها كانت مبتورة الفرحة، وقعت تحت تهديد
«نكدٍ» ما، فلن أتمنى حتى تجميدها.

يراودني شعور بأن المشكلة فيّ وليس في ما يحدث لي، في طريقة
تقبلي للأحداث، وفي الإفراط في التفكير في ما يخص المستقبل، وحمل
الهم «قبل الهنا بسنة» - كما يقولون.

يوم الأربعاء تعرفت إلى فتاة أخرى تنضم إلى طابور أولئك الذين
يشعرونني بالخجل من أوجاعي الضئيلة مقارنة بأوجاعهم، لا أحب
أن أردد كلامًا مكرّرًا عن أنه لا يمكننا أبدًا مقارنة حجم أوجاعنا بمآسي
الآخرين، أنت بالتأكيد تعرف هذا، تعرف أننا قد نملك الدنيا كلها، ونأخذ
منها ما لا نتوقعه، ولكننا نظل نحن ونتحسر على الشيء الوحيد الذي أردناه
ولم نأخذه، لهذا ابتأسْتُ كثيرًا حين تحدثت معها رغم فخري بها، حزنت
لأنها تقاتل، وهو لم يكن كذلك، لأنها نجحت في تخطي المأساة، ونحن

«اثنان من الكبار البالغين» لم ننجح! حزنت لأنني رأيت النجاة ممكنة ولكننا لم ننج! لم أحزن لأنها نجحت، ولكن لأننا لم نفعل! ربما لم نكن صادقين بما يكفي بشأن مشاعرنا؟ ربما لم نملك الإرادة لأننا لم نكن نريد فعلاً أن نكون معاً؟ ربما تكون صديقتي محقة، وكنت أحب الحالة وليس تفاصيلها؟ ربما..

أعرف جيداً أن الأفضل هو ما يختاره الله لنا، وأنا أحياناً ما نختار تعاستنا، وأنا حين تتجسد أحلامنا واقعاً نفقد الشغف بها وقد نكرها أحياناً، وفي حياتي الآن خير مثال على قبح ما تمنيته يوماً، ولكنني أعجز عن المسامحة في هذا الحلم!

٢٠-٢-٢٠١٥

أحياناً أقرأ لأعود لصوابي، كما أفعل هذه الأيام. أحياناً ننسى وجوهنا الحقيقية ونتخيل أنه بإمكاننا التنازل عن أشياء لم نعد نراها كبيرة، من أجل أشياء أكثر إلحاحاً. أو نتنازل عن الأشياء التي طال بحثنا عنها ولم نعثر عليها، ورأينا الكثير من أشباهها، من النسخ الممسوخة لها التي تجعلنا نفقد إيماننا بالأصل.

ولكن بمجرد أن أقرأ، أعرف ما أريد، أعرف أنني إن لم أعثر على ما أريد لن أرتضي بديله، وسيظل يشبه الشوكة في حلقي كلما حاولت ابتلاع الحياة تؤلمني. أبتعد عن القراءة لأصبح أكثر واقعية، وتواضعاً في أحلامي، ثم أكره نفسي وأكره العالم فأهرب إليها كملاذٍ أخير.

أفسدتني القراءة كما أفسدتني أنت يا صديقي؛ رفعت القراءة سقف توقعاتي وأحلامي ولكنها لم تفعل شيئاً في ما يخص مستوى الأرض التي أقف عليها، لأن أنا من يجب أن يفعل!

٢٠١٥-٢-٢١

الرسالة ٦

كعادتني هربت حين شعرت أن العلاقة بيننا تحولت إلى روتين، حين وجدت أنني أكتب إليك لأنني يجب أن أكتب إليك وليس لأنني أريد الكتابة، وكالعادة تكفيني مرة واحدة أنكاسل فيها عن شيء أعتبره إنجازاً لأهجره تماماً.

رسالتي الأخيرة كانت في الواحد والعشرين من فبراير على ما أذكر، والآن أعود إليك تماماً كما أتيتك أول مرة، مثقلة بالحكايات والكلام المكبل على أطراف اللسان/ الأصابع، يموت من شدة التدافع كلما حاولت أن أخرج به.

كل شيء على ما هو عليه، منذ الواحد والعشرين من فبراير، ثلاثين يوماً مرت ولم أغير شيئاً ذا أهمية، ما زال مزاجي يفسدني ويتحكم فيّ بطريقة مقلقة، ما زلت عاجزة حتى عن فهم نفسي، وعاجزة عن المبالاة بأي شيء، ما زالت توقعاتي تتحقق، وما زالت الدنيا تشبه فيلماً سخيلاً يتكرر يوماً بعد آخر.

المشكلة ليست في الحياة بالتأكيد، بل في زاوية رؤيتي لها، في الركن الذي أوهم نفسي بأنه أكثر الحلول أماناً ولا أريد أن أغیره، ولا حتى لتجربة ما هو أفضل.

لاحظت الآن فقط، أنني أعود إليك كلما قررت أن أحسن إلى نفسي، أبدأ التجربة تلو الأخرى، مرة بالرياضة ومرة بالأكل الصحي.. وفي كل مرة لا يكتمل إحساني لنفسي إلا بك، بالحديث معي من خلالك.

أنا أحب الكلام للدرجة التي تجعلني أصمت لأنني أشعر أن الكلام يُمتَهَن، يخرج ممن لا يعنيه إلى من لا يسمعه، وأنا الآن أحوج ما أكون للكلام، أقتنص الفرص النادرة للحديث بأمان مع أشخاص معدودين أثق تماماً أن كلامي معهم لن يتحول إلى خناجر في ظهري، في حاجة للكلام مع بعض الأشخاص / المرايا الذين يعيدون ترتيب من الداخل، يذكرني من أكون وما هي قدراتي الحقيقية؟ وفي أي مكان يجب أن أضع نفسي؟

الكلام وحده بإمكانه أن ينتشلني من شعوري بالجبن، والضآلة، وعدم الرغبة في الحياة.. الكلام وحده يجعلني أشعر بأنني ما زلت حيّة، أنا منذ كفت عن الحديث عن رأيي، وأحلامي، وأفكاري، نسيته! أصبحت مشوشة، أشك في أنني لم أعد أملك رأياً ولا أحلاماً.

هامش: الأحلام تتواطأ ضدي، كل ليلة تغدري بي، تذكرني بما أريد أن أنسى، وتذكرني بالأسوأ «كل ما أظاهر بأنه لم يعد يعينني، لا يزال يعينني أكثر من اللازم».

٢٠١٥-٣-٢٣

أشعر بالضياح. لم أتخيل يوماً أن الضياح يمكن أن يأتي بهذا الشكل.. دائماً ما كانت الكلمة ترتبط في ذهني بالفراغ والفوضى، بغياب أي خيط يربطنا لأي شيء، ولم أتخيل أبداً أنه يمكن أن أضيع وأنا مربوطة بساقية تدور وأدور معها، ولكنني أضيع في هذه الحدود الضيقة جداً والمسارات المحسوبة! أضيع مني.

تفاصيلي أفلتت مني لدرجة مخيفة، تسربت من دون أن أشعر فلم أستوعب في الوقت المناسب لأنقذها، وما تبقى، ما تبقى مني لا يزال يتسرب وأنا أعرف ذلك، ولكنني لا أعرف من أين يتسرب، ولا أعرف حين أحدد مكان الثقب هل سيمكنني إصلاحه في الوقت المناسب أم لا! وحدها الكتابة، تعيد لي تفاصيلي، ترتبني وتجعلني أفهم من أنا؟ ولهذه الأسباب أهرب منها أحياناً.

حين قال «غسان»: «لماذا لا تكتنين؟ أتخافين مني أم من نفسك أم من صدق حروفك؟ اكتبني!» نكأ أسوأ جروحي، لا أعرف إلى متى سأظل أخشى مواجهة نفسي، وأي شيء مرعب أخفيه داخلي حتى أنني أخشى مواجهته؟ متى سأفعلها وماذا سيحدث لي! لا أعرف.

أتذكر الآن بشكل ملح المشهد الأخير من ذلك الفيلم الغامض "En-emy" حين دخل غرفة زوجته ليراها تحولت إلى عنكبوت أسود ضخمة يملأ الغرفة، هذه الصورة هي كل ما يخطر ببالي الآن حين أفكر في ما أخفيه داخلي وأخشى مواجهته!

الفيلم الذي لم أفهمه، جدد مخاوفي من «الغريب» الذي يختفي وراء كل منا حتى أولئك الذين نحبهم. الغريب الذي بعد عن الجميع كي لا أراه. أنا أخشى ذلك الغريب الذي يختفي وراء ظهر الشخص الوحيد الذي سأحب أن أعرفه! ويجب أن أفعل، أنا حزينة، لأنني لا آتيك إلا بأكوام من الحزن والمخاوف والتعاسة، لا ألجأ إليك إلا حين أوشك على الغرق، ولكن هل تصدقني، أنا لا أضن عليك بلحظات سعادتي ولكنني لم أعد قادرة على الإحساس بالسعادة ولا الفرح ولا حتى الاستمتاع اللحظي بالشئون الصغيرة التي طالما عشقتها! الحالة تسوء.. وأنا خائفة.

٢٠-٤-٢٠١٥

الرسالة ٨

أحبك يا صديقي، لأنك لست مثاليًا، ولا تدّعي ذلك، ولا حتى تحاول أن تصبح كذلك، أحبك لأنك حقيقي جدًا، فأرى حتى قبحك جميلًا لأنه حقيقي.

أفكر كثيرًا هذه الأيام في الشعرة بين أن نهتم بأنفسنا، ونحاول أن نكون أجمل، وأفضل، كأهم جميل يمكن أن نسديه للعالم، وبين أن ندّعي المثالية والكمال. تلك الشعرة الفارقة بين أن «نكون» وأن «نبدو».

أفكر لماذا أفضل دائمًا أولئك الواضحين بأخطائهم وعيوبهم وخطاياهم على أولئك الذين يظهرون لي وجهًا ملائيكيًا وكأن الدنيا لا تعنيهم في شيء؟ هل لأنهم - المثاليين - لا يأخذون مواقف حقيقية أبدًا؟ هل لأنني أراهم دمي بلاستيكية، وجهًا يحمل انفعالًا واحدًا فحسب في كل الأحوال حتى لو كنت بصدد خلع رأسها أو ذراعها؟ أراهم مرعبين جدًا حتى أنني - على سبيل التغيير - أريد أن ألعب هذا الدور ليوم واحد!

أخافهم، لأن أولئك الذين يحاولون إخفاء نقصهم يكرهونه، ولن يتقبلوا أبدًا نواقصي! أخافهم لأنهم يعتقدون أن ما يفعلونه إحدى علامات النضج، ولا أراه سوى محاولة طفولية للمكابرة، كنتك التي فعلناها مرارًا في صبا، حين كنا نكتم وجعنا وشعورنا بالقهر ونعلن لوالدنا بسماجة، وعلى وجوهنا ابتسامة مصطنعة يملأها غل دفين، أن الضربة لم تؤلم!

يقول النقاد الفنيون إن أي ممثل بإمكانه أن يلعب دور الشخصية الطيبة، ولكن الاحتراف الحقيقي يظهر في لعب دور الشخصية الشريرة

بتركيبتها المعقدة جدًا. وكذلك الحياة، بإمكان أي شخص أن «يدو» طيبًا، ومثاليًا جدًا، يكفي أن يرسم ابتسامة عريضة طوال الوقت، يتظاهر بتقبله للجميع طوال الوقت، يتماهي مع أي شخص يقابله، يلفظ كلامًا لطيفًا طوال الوقت، لكن الاحتراف الحق هو أن تعيش «حقيقيًا» تدفع ثمن موافقتك الحقيقية، تقول ما تود أن تقوله لا ما ينتظر الآخرون أن يسمعه منك، تظهر بالشكل الذي تحبه، تبتسم لمن يبتسم لهم قلبك فعلاً، وتخلص حياتك ممن يشكلون عبئًا عليها.. أن تكون «حقيقيًا» لا تعني بالضرورة أن تكون «شريراً» ولكن البعض سيرونك كذلك، وأحياناً ستكون كذلك لأن هذه هي الحقيقة! أنت «إنسان» يخطئ ويصيب، يظلم ويعدل، يغضب وينفعل ويحزن.

في طفولتي كان أبطال المفضلين في السينما وشخصيات الكارتون هم الأكثر مثالية، ولكن حين نضجت أصبحت أعجز عن تصديقهم، وبعد بعض الوقت أصبحت أكرههم حقاً.. أكره أولئك الأشخاص الذين أثق بأنهم ليسوا ملائكة، ولكنهم لا يصدرون لنا إلا هذا الوجه، يجعلوننا نشعر بالدونية والضعف، نحاول أن نطمس كل ملامحنا، نكبت مشاعرنا «الحقيقية» أملاً في أن نصبح «مثاليين» فنشبههم. أكرههم، لأنهم ليسوا مثاليين ولكنهم يبدون كذلك.

٢٠١٥-٦-١

الرسالة ٩

الأسبوع الماضي غالبت ميلي للانطوائية، ولبيت دعوة للمشاركة في إحدى الفعاليات النسائية، أتمنى أن تمسح هذه النظرة عن وجهك فهو لم يكن حشدًا للنساء الغاضبات اللائي ينددن بكل شيء، ويوجهن اللعنات للرجال على كل شيء، كان حدثًا لطيفًا تنظمه إحدى المجالات النسائية، يتضمن فقرات عدة بينها ورشة قصيرة لتعليم رقصة الزومبا، وجلسة للتعارف والكثير من الطعام وبعض الألعاب.

كان يومًا لطيفًا لم يجعلني أندم أبدًا أنني غادرت منطقة راحتي، لم يكدر صفوه سوى بعض الرسائل الإلكترونية من العمل، حين غادرت المكان كنت أخف، اكتسبت بعض الأصدقاء ووردة مزروعة في أصيص قدموها لنا كهدية.

أحببت الوردة جدًا، كنت أتمنى منذ وقت طويل أن أحصل على واحدة ولكنني كالمعتاد لم أخذ أي خطوة لتحقيق هذه الأمنية، ولا أعرف السبب، أوريما اليوم عرفته، حين ماتت الوردة.

فشلت في الاحتفاظ بالوردة، لا أعرف هل هذا لأنها أتتني طواعية دون أن أعاني للحصول عليها، أم لأنها عاجزة عن النطق ككل شيء آخر يطالبني بوضوح بالاهتمام به والقيام بمسؤوليتي تجاهه!

أضعت وردات كثيرة من قبل وما زلت أفعل، كل أولئك الذين يعجزون عن مطالبتني بالاهتمام بوضوح أفقدهم، كل من يفشلون في

تحمل عجزى عن الاهتمام بشكل متواصل أفقدهم، كل الفرص التي لا يُصادف مرورها في حياتي كوني مضطرة لالتقاطها أفقدها.

أتألم لذلك ولكنني لا أفعل شيئاً، الأسوأ أنني أصبحت أشعر بالراحة كلما فقدت المزيد، كل ما/ من أفقده يحررني من خوف فقدانه، يجعلني أخف! ولكنني الآن أخف من أن أتمكن من الثبات على الأرض!

كل ما في الأمر أنني أدرك تماماً أن الآخرين ليسوا مضطرين لاحتمالي، ولا أطلبهم بذلك، لكنني أمتن جداً لهم حين يفعلون، وكل ما أخشاه، أن أشبهه، أتحوّل لشخص مؤذٍ يتلذذ بإيلاام من قرروا احتمالته، محبة لا اضطراً، وكأنني أقول لهم: «اشربوا بقى!».

هامش: المحكمة انعقدت للمرة المليون اليوم وللمرة الأولى لم أجدني مذنبه، ورغم ذلك في هذه المرة أيضاً بكيت! أشعر بالظلم ليس فقط لأنني لم أختَر أي شيء، ولكن لأنني سلبت حتى الحق في فهم سبب تدميري!

من أبسط حقوقي لأتقبل خسارتي بروح رياضية هو على الأقل أن أعرف لماذا خسرت؟ لم أعد حتى أطلب بمعرفة قواعد اللعبة.. فقط أطلب بمعرفة سبب الخسارة!

شعوري بالظلم جعلني أشعر بالحققد، شعرت بالرعب اليوم لأنني أدركت ذلك بوضوح وواجهت نفسي به «أنا أشعر بالحققد»! وأعجز عن التعامل مع العالم، وأنا أحمل هذا الشعور الذي يشبه «الفلتر» المرأى من خلاله كل الدنيا وأعجز عن الاستمتاع بها!

الشيء الوحيد الذي هوَّن عليَّ هو أنني لم أجن تمامًا، ولم أفقد القدرة على السيطرة على تصرفاتي، ومنعت نفسي من الانتقام بطريقة تفسد على «آخرين» حياتهم.

«متيألي ربنا هيجازينا خير على إننا بنحاول نبقي كويسين؟»، أقولها لصديقتي وأنا أتمزق في الصراع المرير بين ما تدفعني نفسي إليه، وما أريده لها، أشعر بالضيق، أفقد البوصلة وأتخبط وكالعادة أشعر بالذنب لأنني متخبطة، ولأنني فاقدة الإحساس بمتعة الحياة، ولأنني غاضبة لعدم استمتاعي بالحياة! ولغبائي لكوني غاضبة ولا أغير شيئاً! حتى اللحظة التي أدركت فيها أنني أحاول.

بالتأكيد يعرف الله أنني أفعل، ويعلم -أكثر مما أعرف- أية حرب أخوضها! ويعرف أنني لا أريد أن أكمل حياتي بهذا الشكل.

٢٠١٥-٧-٧

الرسالة ١٠

منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر وأنا عالقة أمام السؤال نفسه في حوار صحفي أرسله صديق، أعجز عن إجابة السؤال أو تخطيه «مين هي سارة؟» أحقق في السؤال محاولة البحث عن إجابتين، واحدة حقيقية لنفسي، وأخرى متحذقة للنشر! أود حقاً أن أعرف نفسي بعيداً عن عملي، وعن هواياتي وعن الأشياء التي أحبها فلا أجد ما أقوله.

هل نحن كذلك بالفعل؟ هل نحن عبارة عن مهنة وعائلة وهوايات وأشياء وأشخاص نحبههم؟ أعجز عن استيعاب هذا، هذا المخلوق المزروع في الأرض منذ ٢٥ عامًا هو ليس شيئاً في حد ذاته! هو عبارة عن لوحة بازل بأجزاء متفرقة إذا غابت إحداها لا يكتمل.

أجرب أن أعرف نفسي بعيداً عن عملي، فأقول: «أنا سارة، ٢٥ عامًا، أحب القراءة والتدوين والقسط...»، أجد نفسي لا أتحدث عن «سارة» فعلاً! أتحدث عن كل ما تحيط نفسها به ولكن لا أتحدث عني فعلاً.

أجد نفسي بعدها أفكر، ومن أنا فعلاً؟ أعرف منذ زمن أن لدي مشكلة في التعبير عن نفسي بالطريقة التي أريد الناس حقاً أن يعرفوني بها، ولكنني أفكر ما هي الحقيقة؟

هل الصورة التي أراها لنفسي من داخلي؟ أم الصورة التي يراها الناس لي؟ الأمر يبدو أكثر منطقية حين نتحدث عما يراه الناس، فهم يرونني من كل الزوايا بينما أنا أعجز حتى عن رؤية وجهي إلا بمساعدة مرآة، يعترف صانعوها أن الصورة بها ليست كالواقع تمامًا!

أعرف منذ زمن أن الانطباع الذي أتركه للمرة الأولى يكون خاطئاً، وأن الصورة التي تتكون لدى الناس عني عندما يعرفونني بشكل سطحي خاطئة تماماً، ولكنني أفكر مرة أخرى فأجد أن هذا هراء! والحقيقة هي أنني «أنا» فعلاً من يرونها بتصرفاتها والكلمات التي ترددها والانطباع الذي تتركه.

أعرف منذ زمن أيضاً أنني أحجل أن أتحدث عن نفسي بشكل جيد، أحجل من إطراء نفسي، بل أحياناً أفضل المبادرة بكشف عيوبي قبل أن يتحدث عنها أحد، أو حتى يكتشفها كي أشعر أن الأمر «بيدي لا بيد عمرو» ثم أجلس في النهاية أبكي لأنني أشعر أن الناس يبخسونني حقّي، ولا يعرفون قيمتي الحقيقة (التي بالمناسبة لا أعرفها أنا من الأساس!)

أعرف منذ زمن أنه لكي يراك الناس جميلاً وواثقاً ولطيفاً ومحترماً يجب أن تشعر إزاء نفسك بكل هذا في البداية، ولكنني أشعر أن هذا مستحيل! كيف أشعر بكل هذا تجاه نفسي وأنا أعرفها جيداً! أتذكر محادثة «ماجي» معك أيها العجوز عن القمر الذي نراه جميلاً لأنه بعيد، ولكن إذا اقتربنا منه نجده مليئاً بالحفر والتجاعيد كوجه مجدور.. هذا بالضبط ما يحدث معي، أنا أقرب من أن أراني جميلة! أقرب من أن أتوهم أنني قوية وعظيمة ولطيفة وإلى آخر هذا الهراء! أنا أرى كل الندوب بوضوح شديد ومزعج حتى أنني لم أعد أرى سواها!

٢٠١٥-٧-٢٣

الرسالة ١١

في تلك الليلة حين ارتيمت على الفراش وبكيت بحرقة، كنت أشعر بقهر حقيقي، ليس فقط لأنني أشعر بأنني وحيدة في مواجهتهم، ولكن لأنني وحيدة في المطلق.

هل تعرف هذه الوحدة التي تعانيتها «وحدك» ولا يدركها الآخرون؟، الوحدة التي تنبع من داخلك لأنك - رغم وجود الكثيرين ممن يريدون أن يكونوا سندًا حقيقياً لك - عاجز عن الاتكاء على أحد، عاجز عن البوح بما تعيشه، عاجز حتى عن تحديده؟

طوال الوقت كان أسوأ ما يحدث في كوابيسي هو ذلك الخررس المصاحب للصدمة والرعب الشديدين. الخررس الذي يضاعف رعبي ويجعلني أفقد الأمل في الخلاص، لأن أحداً لن يعرف أنني في مأزق! الآن، أعيش هذا الكابوس طوال الوقت وإما أعجز عن وصف ما أشعر به، مهما تظاهرت بأنني أفعل، أو أعجز عن تحديده أصلاً.

أشعر بالذنب تجاه الأيدي الممدودة لتسندني فأردها خائبة، أشعر بالخوف والحزن كلما أدرك أنني وحيدة لدرجة أنني لا يمكنني أن أقول لأحد أنني حزينة بدون سبب وخائفة بدون سبب، وتعيسة جداً، وأشعر بالرعب كلما أدركت أنني نسيت كيف أستند على آخرين ولو للحظات ألتقط فيها أنفاسي لأواصل.

أواجه أزمة في التفرقة بين أن أرتمي في أحضان آخر لأرتاح قليلاً وأن أتكى عليه تمامًا فأبدو ضعيفة، فأكره نفسي، ويخذلني، أخشى ألا يمكنني إدراك الشعرة الفارقة بين السكن لآخر، وبين الاتكال عليه والخضوع له.

أفكر كثيرًا، لو أن هناك من يستعد حقًا لأن يستمع لكل هوائي وهلاوسي عن مخاوفي التي لا أعرفها فعلاً وأسباب تعاستي غير الملموسة، هل سألجأ إليه؟ هل أملك الشجاعة للاعتراف بضعفي؟ يحكون أن أقصى علامات محبة القبط لك أن تكشف لك عن بطنها، تلك المنطقة التي تعتبرها أضعف ما فيها، فهل بإمكانني أن أكشف عن باطني؟ عن أضعف ما فيّ لآخر؟

صديقتي «مهجة» عاتبتي أكثر من مرة قائلة: «أنت اللي بتخلي الناس تتخيل أنك سوبر وومن»، أدركت أنها محقة من مدة، ولكنني قريباً فقط أدركت أنني لم أصدّر تلك الصورة للآخرين فقط، ولكن حتى بيني وبين نفسي.

قبل سنوات حين كانت أُمي تنساني في دعائها وأعاتبها كانت تقول لي: «أنت ما يتخافش عليكى يا سارة»، الآن تدعو لي، ربما لأنني بعيدة، ولكنها لا تزال تظن أنني «ما يتخافش عليّا».

أشعر أحياناً أنني كذلك، ولكن ليس شرطاً أن أكون ضعيفة لأحتاج للسند وللراحة. حتى الأعمدة الصلبة لا يمكنها أن تحمل بيتاً وحيدة، حتى الأعمدة المصبوبة من حديد وأسمنت، المغروسة بثبات تحت الأرض تحتاج أحياناً للترميم، للرعاية، كي لا تنهار بما تحمله من ثقل.

٢٠١٥-١١-٢٤

كنت أتصفح «فيس بوك» بلا مبالاة حين استوقفتني تلك الصورة لقدم عارية لامرأة مشدودة الأعصاب توشك على السقوط، تمنعها عنه فقط يد رجل تمسكها بقوة، انقبض قلبي حين رأيت الصورة المصحوبة بالكثير من التعليقات عن «الرجل السند»، و«الثقة التي تملأها بأن يده هناك»، شعرت بغصة لأنني رأيت يديه اللتين «تلصمانها» قاسيتين لا تسمح لها بأن تستريح، تشبه تمامًا تلك القسوة التي يرتكبها بحقنا أولئك الذين يحبوننا، ولا نملك إلا نغفرها لهم، قسوة من نحب حين يجبروننا بمساندتهم مرة، وبخوفنا من خذلانهم مرة، على أن نواصل المشي بكل هذه الأوجاع التي تثقلنا، نخشى أن ننهار فنفرعهم، يخشون أن ننهار فيسندوننا في اللحظة الأخيرة، وكل ما نحتاجه نحن أن نستريح قليلًا ولو بالسقوط أرضًا.

مر ببالي الكثير من الكلام حين رأيته، ولكن لأنني الآن لا أملك رفاهية أن أكتب ما أريد وقتما أشاء، نسيته كله، وكل ما أذكره هو أن صورة أعصابها المشدودة، وقدمها المنهكة، تمثلني بشدة.

كل صباح، أخوض حربًا مع كل خلية في جسدي، أجبرها أن تطيعني ونواجه هذا العالم ليوم آخر، وكل ما أحلم به هو إغماء طويلة تعفيني من التفكير واتخاذ القرارات وحسابات العواقب، كل ما أحلم به أن أنكسر، ألا أكون بهذه القوة/ أو الهشاشة! ألا أمشي إلا على ساق قوية متعافية، ولا أضطر للمشاركة في هذا الماراثون اللاهث بجيبرتي.

كل ما أتمناه هو أن أغادر منطقتي الرمادية التي لا تقودني في النهاية
إلا إلى المزيد من الحيرة والكآبة. الرمادي يكسو حياتي كلها لدرجة أنني
عاجزة عن تحديد حتى أبسط الأشياء التي كانت يوماً ما بديهية بالنسبة لي،
كل يوم أتساءل هل فعلاً أحب ما أحب وأكره ما أكره؟ هل أنا تعيسة حقاً؟
هل أنا سعيدة؟ هل أفعل ما أريده حقاً أم ما أقنع نفسي أنني أريده؟ هل
أمشي في الطريق الذي حلمت به أم الذي توهمت أنني أحلم به؟

أشبه الأشياء تفسد حياتي، حياتي كلها أشبه بعبوة اللبان رديء الصنع
الذي يبيعونه في المترو بربع ثمن عبوة اللبان الأصلية، الشكل يكاد يتطابق
لولا اختلاف طفيف في طريقة كتابة الاسم أو حروفه ليهرب صانعه من
المساءلة. يشتريه البعض ويظنون أن كل اللبان مثله تماماً، قطعة مطاط
يختفي طعمها وسكرها بعد بضع دقائق وتؤلم الفك لأنها متجلدة. يكرهون
اللبان أو يفقد لذته ومعناه بالنسبة لهم لأن كل ما يعرفونه هو النسخة رديئة
الصنع!

حين أرجوك أن تساندني..

لا تحملني أنت..

لا تمد يديك لتمنعني من السقوط..

ولا تتخوف كل هذا العبء..

كل ما أرجوه أن تتركني أسقط..

وتظل هنا..

تطمئنتني..
تربت عليّ بحنان..
تخبرني أنه لا بأس..
لن ينهار العالم..
لن تنهار أنت..
لن أفقد كل أحبتي..
لو فقط.. استرحت للحظة

٢٠١٦-١-٢٤

اختلال ترتيب رقعة الشطرنج يربكني ويؤكد لي للمرة الألف أنني أقدم الروتين وأكره التغيير بل أخافه، لا أعرف هل هؤلاء الذين نخسرهم حين يتحركون للبقعة الخاطئة في رقعة الشطرنج، نخسرهم لأنهم أصبحوا فعلاً في المكان الخطأ؟ أم لأنهم، الآن فقط، أصبحوا في المكان الصحيح، حيث الإضاءة المناسبة تكشف وجههم الحقيقي الذي لا نعرفه وبالطبع لا نحبه!

أشعر بالخوف من قطعة الشطرنج التي ستتحرك في المرة المقبلة، وأرى وجهاً آخر لها، والحركة التالية للقطع التي أحتمي بها الآن، والقطعة الأخرى التي يجب أن أفقدها لتستمر اللعبة.

بالمناسبة، مضى عام بالتمام، على رسائلي هذه، الرسائل التي من المفترض أن تكون يومية، أكملت بالكاد متوسط رسالة لكل شهر، رغم أنني أتوق لك وأجوع للكتابة كثيراً.

أفتقد تلك الأيام التي كنت أملك فيها رفاهية التمرد على ما هو مفروض من أجل أن أكتب، أن أتجاهل المذاكرة والليل الذي يتأكل سريعاً ويفصلني عن الامتحان، وأكتب. اليوم، أكتب كل ما أريد أن أكتبه داخلي وأنا أعرف يقيناً أنني أقتله للأبد، وألعن ذلك الإحساس بالمسؤولية الذي يقدره الآخرون كثيراً فينا، ويمتنون لأجله، بينما هو في الحقيقة يقتلنا نحن.

أحاول أن أهون على نفسي، فأضعها على الجهة المقابلة، أفكر في شعوري لو أن أحدًا عاملني بهذه الصبيانية، وأخبرني بكل صراحة، أنه لم يفعل ما كان من المفترض أن يفعله لأن شيئًا يحبه ألح عليه.

أفكر في رد فعلي، وحكمي عليه بالأنانية وعدم تحمل المسؤولية، وأبتلع ما أود أن أكتبه صامتة، لأفعل ما يجب أن أفعله.

حين أعود لبيتي منهكة، غير قادرة على أكثر من التفكير، أعيد النظر في الأمر نفسه، أفكر لماذا أنا غاضبة من هؤلاء الذين يتصرفون بتلك الصبيانية؟ أفكر لماذا أنا غاضبة منها «هي» بالذات؟ هل لأنها لم تصبح نسخة مني؟ هل لأنها تضع نفسها على قائمة الأولويات؟ وما مشكلتي في ذلك؟ لو كان بإمكانني أن أفعل ذلك لفعلته، فما المشكلة؟

أشعر كثيرًا أنني «ألعب» الحياة بجدية أكثر من اللازم. تمامًا كما أَلعب مع أي طفل. لا يمكنني أبدًا أن أتخلى عن إحدى قواعد اللعبة أو أتعامى عن الغش أو أغافل عن خطأ ارتكبه لمجرد أنه طفل، أو لأنها لعبة! حتى اللعب أمارسه بصرامة شديدة والتزام تام بالتعليمات حتى لو أفقده ذلك لذته!

جزء من غضبي منهم لأنهم يخرقون قوانين اللعبة ويغشون في اللعب بمتتهى «البجاجة»، والجزء الآخر لشعوري بأنه يتم استغلالني بكل الطرق الممكنة.

كلما غضبت لهذا السبب الأخير تذكرت ذلك الاتهام الذي أوجعني قبل ٨ سنوات من الآن، وإلى الآن لم أنسه، أفكر هل أنا أنانية؟ هل فاقد الشيء لا يعطيه وأنا بالفعل عاجزة عن العطاء أو الاحتواء؟ هل هم عاجزون

عن تمييز تلك الشعرة بين الاستغلال والمساعدة؟ أم أنهم يدركونها وبكل بساطة، ووضوح، يريدون استغلالني؟

هل حدثتك من قبل عن تلك اللوحة التي أود أن أرسمها ولكنني للأسف لا أجيد الرسم؟ هناك لوحة مرسومة في ذهني منذ سنوات لمجموعة من الناس على وشك الغرق، بدلاً من أن يحاولوا التجديف للوصول للشاطئ أو على الأقل للبقاء على السطح، يحاول كل منهم الإمساك برقبة الآخر عله ينجو فيقتلون بعضهم بعضاً، هذه اللوحة تلخص حالي تمامًا مع تعديل طفيف عليها، فقط أراني في المنتصف والجميع يحاول أن ينقذ نفسه بإمساك رقبتني.. وأنا أختنق!

٢٠١٦-٢-٢٦

الرسالة ١٤

ننسحب من بعض المعارك يا صديقي، ويظنون أننا فعلناها لأننا أضعف، لا يفهمون أننا مللنا الحرب، وأن بعض الأشياء إن لم تأتِ بسلام فهي لا تستحق عناء المحاولة.

أراقب هوسهم المحموم للمعارك والمنافسة وأعجب من كم الطاقة التي يملكونها ليهذروا منها كل هذا القدر في المعارك، ويظل لديهم ما يكفي من الطاقة ليفتحوا عيونهم صباحًا ويدخلوا معركة جديدة.

لا يمكنني أن أمنع نفسي من التساؤل عن المخطئ فينا؟ أحيانًا أراهم لا يأخذون الحياة بالجدية اللازمة. هذه المجازفة وهذا الهراء يعني أنهم بالتأكيد لا يدركون قيمة هذه الحياة التي يهدرونها في المعارك المستمرة، ولكن بالمزيد من التفكير أرى أنني أقل نضجًا من أن أفهم الطريقة التي يديرون بها الحياة، أشعر بأنني أتضاءل وأنهم وحدهم يدركون ما يفعلون حقًا، أذبذب بين الإحساسين وأشعر بالدوار وتراقص الصورة أمامي فأراهم تارة عمالقة وتارة أخرى أقزامًا.

لو أنني كتبت هذه الرسالة قبل أيام، لقلت لك إن هذه الحيرة تشعرني بالخوف، وإنه يجب أن أدرك في وقتٍ ما من منا المخطئ، ولكنني لسبب لا أفهمه لم أعد أكثر. لم يعد يهمني كثيرًا هل أنسحب من هذه المعارك ترفعًا أم جنبًا، ولكنني أعرف جيدًا أنني لو منحت الخيار مرة أخرى، سأختار الانسحاب.

مرة أخرى شردت، ونسيت السبب الذي أكتب لأجله هذه الرسالة وهو أنني أشعر بالسخط وأنا أقدم للعالم كل يوم أحمقًا جديدًا، أمنحه تمامًا ما يريد، أنصب له ساحة الاستعراض، وأراجع لأشاهد الجمهور يصفق له منبهراً، أتمنى لو أنهم يخدعونني كي لا أشعر بأنني بهذا السوء! ولكنهم للأسف لا يفعلون وأنا أدرك تمامًا الحقيقة.

قبل أسابيع، واجهت حقيقة عملي بشكل مجرد وصادم للغاية، رأيتنا أشبه بالذباب الذي يتبع الجثة ويحوم حولها، فكرت ألف مرة في المشهد الذي أنا هذه المرة جزء منه، وتساءلت هل أتمنى أن تكون قصتي مشابهة؟ ورغم أن الإجابة بلا كانت قاطعة، إلا أنني لم أغير شيئاً حيال الطريق إليها.

هذه الأيام أمضي غالبية وقتي مع هذا المخبول «هاوس»، يشبهك كثيراً ولا عجب أنني أحبه، حتى أنني أصبحت أشك بأنني مثل «ويلسون» أو «كاميرون» مريضة بحب من يحتاجون إليّ ويعيشون في تعاسة محققة، المهم أنني أراقب هذا المخبول غير الاجتماعي وأراقب بقلق أنه يروقي، أفكر في حياته التي انتهت تقريباً ولا يبقى منها سوى العمل، وأتساءل بقلق عن الفارق بيننا فلا أجد فارقاً سوى أنني حتى لم أصل لبراعته في عملي.

هذا البريق للمهارة التي نتمتع بها فنبدو للآخرين كسحرة مدهشين، مخيف حقاً، يجعلنا نشعر أحياناً بأن الجميع بإمكانهم أن يغفروا لنا كل شيء طالما لا يزال سحرنا هذا متوهجاً، نهرب من الآخرين لأننا نخشى أن نحتاجهم، ونعرف أنهم لا بد أن يكونوا متواجدين بالقرب منا لأن سحرنا يجذبهم، نكتفي بذواتنا لأننا نخشى الخذلان، ونغرق في الكتابة كعقاب أبدي للنفس على ما تفعله مع الآخرين ولا نعرف لهذه الدائرة نهاية!

قرأت قديمًا أن ذلك الصوت الذي يسمعه الناس صادرًا مني، ليس صوتي. أو بمعنى أدق، ليس نفس الصوت الذي أسمعه أنا من حنجرتي. لو لم تخونني ذاكرتي، فإن تفسير ذلك له تفاصيل كثيرة تتعلق بسريان الصوت بين عظام الجمجمة والمسافات وما إلى ذلك، لكنني أشتاق جدًّا لسماع صوتي «الحقيقي»!

تشغلني جدًّا هذه الفكرة، حقيقة أن الصورة التي نراها في المرآة ليست تمامًا صورتنا، يحيرني ذلك الاختلاف في صورتني بسبب الإضاءة، أراني في بيت القاهرة هادئة، ببشرة قمحية، وأسنان لا بأس بها لكنني ممتلئة.

في بيتنا هناك، أراني سمراء، بأسنان بائسة ولكنني أقل وزنًا. في مرآة العمل الضوء أشد قسوة، أرى بوضوح كل أثر تركته البثور على بشرتي، وآثار عبث الطبيب والزمن بأسناني. في مرآة الميكروबाص أحب جدًّا أن أنظر لأصابعي، أراها طويلة وجميلة على عكس الطريقة التي أراها بها من الزاوية التي أرى بها نفسي في الحقيقة.

قرأت قديمًا أيضًا أن القطط لا ترى كل الألوان التي نراها، ولا ترى الأشياء بالزاوية التي تدركها عيوننا، وبعض الطيور كذلك. وأذكر أيضًا أنني قرأت أن إدراك كل منا للألوان يختلف عن الآخر، وما أراه بالنظارة يختلف تمامًا عما أراه بعيني دونها، والاثنان يختلفان عما أراه بالعدسات اللاصقة.

أشعر بالرعب أحيانًا من هذه الفكرة وأحيانًا بالغضب، أشعر بأن الحياة لعبة غير عادلة، نظن أننا نرى الشيء نفسه، ونتعامل مع الأشياء نفسها ولكن

لا أحد يرى الحقيقة ولا أحد يعرف أصلاً ما هي؟ أشعر أن الحياة عبارة عن «استغماية» كبيرة ولكننا جميعاً «معصوبي الأعين» نتخط باحثين عن أشياء لا نعرفها أصلاً! أشعر بالخوف لأنني حتى لا أعرف ملامحي «الحقيقية»، فكيف أعرف نفسي؟

حتى الكلمات، ما أكتبه / أنطقه ليس هو ما يفهمه الآخرون فيحبونه / يكرهونه، ورد فعلهم ليس هو ما أفهمه، فما هذا الهراء الذي نعيشه! كيف من المفترض أن أتخذ قراراً صائباً وسط كل هذا الضباب؟ كيف وإلى أين من المفترض أن أصل؟

هذا اليقين الذي يملكه البعض أيضاً يدهشني، وأحياناً يشعروني بالخوف، هل هناك ما فاتني في قواعد اللعبة لذلك أنا لا أفهم بينما هم يفعلون؟ أم أنهم أغبياء ولم يدركوا حقيقة ما نعيشه؟ هل أعطاهم المدرس في غيابي «قانوناً» ما يعرفون باستخدامه كيف يصلون لحل المعضلة؟

٢٥-٣-٢٠١٦

للمرة الأولى يا صديقي آتيك دون أن أكون مُحملة بالخيبة، ذلك الشيء، الذي سُلِبَ من روحي دون أن أعرفه، بدأ يعود. أشعر بالفرحة منذ أسابيع، وأراقبها ببعض الخوف، حين تمرض وتكون على حافة الموت ربما لن تفزع حين تسوء حالتك بقدر أن يتحسن كل شيء فجأة، دون سبب واضح ودون أن تفعل شيئاً، هذا بالتحديد ما أشعر به الآن.

الحياة تُحسن إليّ بشكل لم أعتده هذه الأيام، وبدلاً من الاستمتاع بهذا التحسن وحالة الرضا، أترقب ضربتها القادمة، وهذا هو التعريف الحرفي للغباء، ولكن رغم كل شيء، ورغم كل هذا الخوف، أشعر بأنني أقوى، شيء ما داخلي يطمئني.. «بعد أن خبرت كل هذا البؤس لا شيء قادر على إزعاجك»، لكنني سرعان ما أسكت هذا الصوت في داخلي وأحذره أن تسمع الدنيا هذا الهذيان فيستفزها ذلك لتحديه.

المهم، لنعد إلى موضوعنا، حاولت الكتابة لك قبل أيام، لم أنشغل عنك في خضم هذه الهدنة بيني وبين الحياة، كنت أود أن أحكي لك الكثير لكن لم يسعفني الوقت، فضلت أن أستمتع بالحالة عن الكتابة عنها، ولا يمكنك لومي يا عزيزي، فحين تضع أمامي دجاجة وأنا أتضور جوعاً لا تنتظر مني أن أنفحصها بكبرياء وأصفها لك قبل أكلها.

بشكل ما أشعر أن ما أهدر من كرامتي عاد، شعوري بالرغبة في أن ألطم أحدهم على وجهه وأخبره بصراحة عن رأيي فيه قل بعض الشيء، بعد أن انتقمت منه الحياة بطريقة عادلة، أشعر بالسعادة أيضاً لأنه للمرة

الأولى تتحقق أحلام تمنيتها طويلاً وتخليتها مستحيلة بهذه البساطة، اعتدت دائماً أن أتعب في مطاردة أحلامي لدرجة تجعلني أرهدّها حين تتحقق، وللمرة الأولى، وبشكل غير متوقع أبداً، شعرت بلذة تحقق بعض الأحلام ببساطة ودون عناء.

أشعر بالرضا، لأنني أكتشف تدريجياً أن كل ما بذلته من جهد في السنوات الماضية لم يذهب أبداً هباءً، في كل لحظة أكتشف بالصدفة وأحياناً ببعض البحث أنني لم أضع وقتي هدرًا.

أشعر بالسعادة منذ قرأت هذه العبارة التي كتبها لي صديق أثق به «فكري كده المكان اللي انتي فيه دلوقتي، هو كبير على فتاة نشأت في طنطا ومالهش ضهر ولا واسطة، وشقت ده بدراعتها ومدونتها»، منذ كتبها ارتسمت على وجهي ابتسامة واسعة، لا تزال موجودة حتى الآن، كلما خفتت أعيد على نفسي العبارة نفسها وأبتسم.

أشعر بالرضا، لأنني للمرة الأولى من سنوات.. أشعر بالثقة، وهي بالنسبة لي قيمة أكبر كثيراً من مجرد ثلاثة أحرف، وأعرف جيداً كم بذلت من روحي، وكم شعرت بالتعب حتى أصل لها، أشعر بالرضا لأنني أخيراً شعرت بالرضا، وهو أفضل من السعادة بكثير، وأكثر واقعية منها.

٢٠١٦-٤-١

مضى شهر تقريباً منذ أن كتبت خطابي الأخير، حاولت مراراً أن أكتب لك عن الرضا الذي يسكنني، أو بمعنى أدق يغمرنني ولكنني فشلت، شعرت بأن أي كلام أكتبه مبتذل، أحببت أن أمتلئ بهذا الشعور للأبد وخشيت أن أكتبه فيتسرب مني.

أعرف أنني حين أكتب عن حزني أغسل نفسي منه، أفرغ منه قليلاً لأنه لم يعد داخلي متسعاً للمزيد، ويبدو أننا لهذا السبب نبخل بالكتابة عن السعادة.

كل ما أتمناه أن أكتب عن فرحي بالصدق نفسه الذي أكتب به عن الحزن، وأن يستقر فرحي في أعماق قلبي تماماً مثلما يستقر الحزن، ولكنني أعرف أن السعادة شعور سريع التبخر والتلاشي، حتى أنني لا أحب أن أعتبر ما أشعر به الآن سعادة، فأفضل الرضا لأنه أسمى وأبقى ولا يخلو أيضاً من بعض الحزن الرقيق.

أشعر أن السعادة موصومة دائماً بالوهم، نتوهم أن الناس كما نظنهم فنسعد لذلك، ونتوهم أن ما نعيشه يدوم ونسعد لذلك، ولكن الرضا يحمل ذلك الصدق الناضج، نعلم أنهم ليسوا تماماً كما نريد ونرضى، نعلم أن كل ما نعيشه مؤقت لا محالة ونقتنع بهذا القليل الذي نتمتع به.

رددتُ لنفسي كثيراً بيت الشعر الذي أحبه لأحمد بخيت: «وَأَوْ مِنْ أَنْ أَعَوَّامًا عَجَافًا.. يَعْوُّهَا الْقَلِيلُ مِنَ الثَّوَانِي»، ولكنني وقتها لم أكن «أو من»،

كنت أحلم بأن يعوضني الله عن أعوامي العجاف بالقليل من الثواني. الآن فقط جربت وآمنت.

لا أعرف كيف رد الله لي رוחي التي تسربت مني قطعة قطعة.. عادت كما ذهبت دون أي تدخل مني، في البداية داخلني الخوف من أن أفقدها مجدداً، ولكنني بعد بعض الوقت والتفكير ربما، أو بدون سبب ربما، وجدتني راضية. راضية بوجودها وقانعة بأنها لن تدوم طويلاً، ومتقبلة ذلك.

لا أعرف ماذا تغير مؤخراً، ربما ما تغير هو أنني غادرت قوقعتي قليلاً؟ أم أن حجاباً بيني وبين كل ما يمكن أن يمدني بالثقة انكشف.

بمناسبة القوقعة التي غادرتها، في الأيام القليلة الماضية قابلت عدداً من الناس أكبر مما قابلته ربما خلال ٤ سنوات مضت، كنت أشارك في إعداد فيلم وثائقي في محافظة لم يسبق لي زيارتها على الإطلاق، داخل مجتمع أحتك به للمرة الأولى، كنت أشاهد الدنيا كما لو أنني طفل يغادر بيته للمرة الأولى، بعيون واسعة واهتمام بالغ.

كل الوجوه التي قابلتها، كنت أبحث فيها عن شيئين لا أكثر.. الرضا والصدق، رأيت الأول كثيراً على عكس ما توقعت، ولكنني احترت كثيراً في الصدق. للمرة الأولى أشعر أنه أحياناً ما يكون الإفراط في الصدق كذباً - هذا التعبير ليس دقيقاً لكنني لم أجد غيره - أعني أنه حين تبدو طبعياً في ظرف استثنائي فأنت بالتأكيد لست على طبيعتك.

رأيت أيضاً ما لم أبحث عنه، انكسار الآخرين الذي تكون شاهداً عليه لدرجة أن تشعر بأنك متورط فيه، تود لو تبتلعك الأرض ولا تستمر في هذا

الموقف دقيقة أخرى، ثم تشعر بأنك أنت أيضًا منكسر لأنك مضطر للتورط في كسره؛ مثل ذلك الجندي المكلف بتعذيب متهم لا يعرفه، ويعرف أنه لو لم يعذبه سيكون مكانه.

بالمناسبة، قائمة أحلامي أنجزت بالكامل، بعد أن سبحت للمرة الأولى في السماء داخل البالون الساخن (أرفق لك صورة التقطتها من السماء لبالونات كانت تطير على نفس ارتفاعي)، تحققت أيضًا في الأيام الماضية أحلام ظننتها مستحيلة، وأخيرًا بعد ٥ أعوام أو أكثر سأضع قائمة جديدة، لن أفكر طويلاً في كيفية تحقيقها، أو موقعها من المنطق.

٢٠١٦-٥-١

في كل مرة أقف أمام اختيار صعب، ولو حتى بيني وبين نفسي، يمر أمام عيني كل ما بذلت من جهد طيلة السنوات الماضية، أتذكر قول درويش: «سلامًا على ما صنعت بنفسك لأجل نفسك»، ويكون قراري واضحًا: لن يكون بإمكانني أن أرجع للوراء أو أتخلى عما تعبت لأحققه فكانت لذته مضاعفة.

أحيانًا أكره ما أنجزت لأنه بشكل ما يقيدني، أتمنى لو أنني ما زلت حرة وصغيرة وليس لديّ ما أخشى فقداؤه، أحيانًا أشعر أن الصدفة التي بنيتها فوق لي تحميني وأحتمي بها تحولت إلى صخرة ثقيلة تجعل خطواتي أبطأ وأكثر ألمًا، أتمنى لو أن لديّ من الشجاعة ما يجعلني أترك كل شيء ورائي وأمضي، أتخلى عن هذه الصخرة وأبدأ من جديد وأحلم من جديد وأتعب من جديد، ولكن لأنني واثقة أن أول ما سأفعله - من جديد - هو بناء صدفة أخرى أراجع عن الفكرة.

لست تعيسة، ولكنني أفتقد أيام فوضاي السعيدة وعشوائيتي، حين كنت أتصرف أكثر مما أفكر، وأخطو قبل أن أفكر في موضع قدمي وفي مدى خطورة الحركة المقبلة.

حياتي تحولت إلى مباراة شطرنج طويلة وأنا منزوعة من كل هذا التعقيد، رغم أنني أظهار بالقوة إلا أنني لست قوية بما يكفي بعد لأرسي قواعد اللعبة، وأتمنى حين يحدث ذلك أن أحتفظ حتى ذلك الوقت برغبتني في أن ألعبها ببساطة ودون تعقيد.

لو أن هذا يحدث، لو أن الحياة بمثل هذه البساطة لكنت الآن سعيدة جدًا.. أو تعيسة بشكلٍ خالص، وأي الحالين أفضل كثيرًا من التأرجح بين السعادة والتعاسة دون لحظة يقين واحدة.

٢٠١٦-٥-٧

هذا ليس عدلاً! أسوأ ما يحدث في حياتي هو ما لخصه «عماد أبو صالح» حين كتب «كنا نمسح دموعنا ونقول: «لا يهتم حين نكبر سنكسرهم أيضاً».. إلا أنهم وحينما تأتينا الفرصة المناسبة ينكسرون من تلقاء أنفسهم». أغلب من أساءوا لي حين حانت لي الفرصة للرد عليهم كانوا أضعف من أن يمكنني أن أقسو عليهم. يرى البعض في هذا عدالة من السماء ورداً من الله على ما ارتكبوه بحقنا دون أي تدخل منا. ولكن هذا الغضب المكبوت داخلي لا يسكته ضعفهم! المرارة لا تزال بحلقي ورغبتني في انتزاع حقي بنفسني تحرقني من داخلي.

أسوأ ما يفعله من يسيئون إلينا هو حنانهم، أو تظاهروهم بالحنان. هو ليس اعتذاراً كي يبرد قلوبنا، ولا هو المزيد من القسوة التي تجعل رصيدهم لدينا ينفد تماماً فنثور عليهم ونصارحهم بكل ما أوجعنا. هذا التآرجح بين القسوة والحنو يضيع أعمارنا في الحيرة؛ لأننا لسنا أنانيين بما يكفي لنفعل ما يريحنا بغض النظر عن مدى قسوته على الآخرين.

أحياناً أكره هذا النوع من الأشخاص «الطيبين». تستفزني «طيبتهم» التي تمنعني من مصارحتهم بما يوجعني، بأخطائهم الغبية التي تتكرر ولا يمكنني أن أضع لها حداً لأنني كلما شحذت قسوتي وغضبي لأواجههم يستقبلونني بوجه طفل لا يمكنني أبداً أن أصفعه بكلامي!

أحياناً ما تكون مواقفنا الصببانية مريحة يا صديقي. يفيدنا أحياناً أن نتحلى ببعض الأنانية وألا نملك تلك الموضوعية التي تجعلنا نرى الأمر

من كل الزوايا ونضع أنفسنا مكان الآخر، نتفهم موقفه ودوافعه ونشفق عليه ونعجز عن كراهيته بشكل مطلق أو الغضب منه. هذا الشعور متعب جداً؛ نتمزق بين الغضب لأنفسنا والتسامح مع الآخر وعدم القدرة على صب اللعنة عليه وتصوره شيطاناً خالصاً لأننا نعي تماماً أنه ليس كذلك. نشعر ببعض الحق حين نضطر في النهاية للتسامح مع هذا الآخر لأننا ننعم ببصيرة لم يحظ بها وتفهم لم يملكه.

كتب «عماد أبو صالح» أيضاً: «المنسي، الصعب، الحتمي هو أن تكره الأم. حبل الحنان الذي يلتف كحية حول رقابنا. القاتلة المحترفة بسلاح الحب. الكيان الهش الذي يسحقنا بضعفه ونرتعب طول الوقت من أن نرد أذاه فنكسره» هذا تحديداً ما أشعر به تجاه الكثيرين، أكره هشاشتهم المعلنة والواضحة والتي تستجديك أن تحتلمهم لأنك أقوى وأعظم. فيما تتأمل أنت هشاشتك الداخلية ولا تعرف هل تلعن تخاذلهم تجاه أنفسهم أم قسوتك على نفسك.

أكره هؤلاء الذين يحملون طول الوقت لافتة «قابل للكسر» ويطلبون منك في كل لحظة أن تنتبه إليها، بينما هم يجرحونك بخناجرهم، وإن تدمرت يذكرونك أن قواعد اللعبة واضحة من البداية. هم أعلنوا شروطهم بينما أنت لم تعلن خاصتك، فلتبتلع سخطك وتتحمل في صمت.

أحياناً أشعر أنهم أقوى مني. أنهم يمتلكون من الشجاعة ما يكفي لكشف هشاشتهم بهذا الوضوح ومواجهة العالم بها، بينما أحاول أنا إخفائها وإنكارها كوصمة فأحمل عبئها مرتين.

الرسالة ٢٠

هل هو النضج، أم كثرة الخيبات التي تمنعنا عن التشبث بما نريد كما ينبغي؟ نتظاهر بالزهد فيه كي نحفظ ماء وجهنا أمام أنفسنا أولاً، ثم أمام الدنيا حين يخذلنا ما نريد ولا يكون كما ظننا أو ببساطة.. لا يكون لنا.

في الرابعة من عمري لقتني الحياة الدرس الأول في وجوب التخلي. فردة الحذاء التي لم أتخل عنها حين انسلت من قدمي، تركت جرحاً لن أنساه بسهولة، كنت أصغر بالتأكيد من أن أنتبه إلى أنه في لحظة ما، وأنا أجري بسرعة معينة، لا ينبغي أن أحاول استعادة ما يسقط مني لأن خسارتي ستكون أكبر بكثير منه.

كنت أصغر من أن أفهم معنى «اتركه يمضي» وأنه أحياناً لا ينبغي أن أنظر ورائي، ولا أفكر في ما فقدت وأن أستمتع بالرحلة، وأستمر بما تبقى مني كي لا أفقد توازني، وأخسر كل شيء.

لكنني لم أفهم. ظللت حتى وقت قريب أتشبث بما أريد حتى اللحظة الأخيرة. حتى لو فقدت الشغف به، فقط لأنني أتحدى الدنيا ولا أريد أن أخسر أمامها.

منذ أيام، ذكرني «فيسبوك» بعبارة كتبتها حين رأيته في هذا التوقيت تحديداً ابتسمت بسخرية، كنتُ بكل غياب وسذاجة وأصل تحدي الدنيا في التمسك بما لم أكن متأكدة وقتها هل أريده فعلاً أم لا !

وأمس ذكرني «فيسبوك» مرة أخرى، بما كتبت سابقاً عن النضج الذي يجعلك أعقل من أن تجزم بشيء ما، بـ«ربما» التي تسيطر على كلامك

و«أكيد» التي تتلاشى تقريباً. عن هذه اللعنة حين تلحق بالأشياء التي تحبها، وتشعر بالخوف أو التردد «هل أحبها فعلاً أم أؤهم ذلك؟»..

هذا التردد الذي يجعلك تصمت طويلاً في سجودك، تتضارب في قلبك الأمنيات، ولكنك تخشى أن تطلبها من الله عليها تتحقق يوماً وتصبح لعنتك! تقارن ذلك بلسانك الملهوف الذي دعا الله طويلاً بأشياء ترتجف هلعاً الآن من تخيلها لو حدثت.. تشعر أنك في سنوات سذاجتك تلك كنت أفضل.. كانت الحياة بالنسبة لك أسهل كثيراً. تؤمن في داخلك بأن كذا وكذا لو حدث ستكون سعيداً. هكذا ببساطة. وإن لم يحدث ستكون تعيشاً. بالبساطة نفسها. لكنك الآن لا تعرف حقاً إن حدث ما تتمناه هل تكون سعيداً؟ وإن لم يحدث هل هذا سبب تعاستك حقاً؟ هل الأمر بهذه البساطة وهل المعادلة بذلك الوضوح أم أن طرفاً خفياً في المعادلة يظهر في اللحظة الأخيرة ويقلب الموازين كلها؟

هذا التفكير يأكل روحك حقاً. يجعلك تتمنى لو أنك واحداً ممن لا يحلمون بأكثر من أن ينقضي يومهم وكفى. بلا أسئلة كبيرة ولا الكثير من الحيرة. تشعر أنهم يعيشون حقاً، بينما أنت تتعامل مع الحياة كمسرح جريمة، تتحرك داخله بحذر، وتتفحص كل شيء حولك كدليل أملاً في الوصول إلى حل اللغز دون التورط فيه!

٢٠١٦-٥-٢٣

أخبرتكَ من قبل إن أسوأ ما يحدث في كوابيسي هو أن ينحبس صوتي وأجد نفسي عاجزة حتى عن الصراخ. أن أرى كل هذا الخوف وحدي وأعجز عن أن أحكي للناس عنه. أفكر منذ يومين في هذا الشعور. هل ما يرعيني ألا يفهمني الناس؟ ألا يدركوا ما أعانيه فلا يساعدونني؟ أم ما يرعيني هو ذلك الشعور بالعجز؟

أكره الشعور بالعجز وألعبه ألف مرة. فهمت مرارًا ما قاله دنقل: «حين ترينني عاجزًا.. تمنى لي الموت فهو رحمتي الوحيدة»، أذكر تلك المرة حين ازداد وزني بشكل ملحوظ ومزعج بالنسبة لي. كنت أعرف أنه ازداد، وأسمع ملاحظات أمي بأنه ازداد، وأشعر بالغضب لأنه ازداد، وبالجنون لأنني عاجزة عن فقدان جرام واحد! أفكر بتلك الأيام التي كدت أجن فيها لأنني عاجزة عن منع عقلي من التفكير في أمرٍ ما. عاجزة عن إيقاف هذه التروس التي تهدر بجنون في عقلي حتى أتخيل أنها لفرط جنونها ستفلت وتدمر جمجمتي.

أذكر تلك الليالي الطويلة التي سهرت فيها أحاول استعادة قطتي الصماء من سطح البيت، ألعب عجزها عن سماعي وعن فهمي وعن الاطمئنان للمعبر الآمن الذي أمدته إليها لتصبح بأمان، وألعب عجزني عن التوقف عن التفكير في ضرورة مساعدتها! أنا أخاف العجز. العجز عن النوم. العجز عن الاستيقاظ من النوم.. العجز عن مغادرة السرير، العجز عن الخروج من المنزل، العجز عن السيطرة على أفكارني، العجز عن التحكم بمزاجي. العجز عن الشعور بالسعادة رغم وجود مسبباتها. العجز

عن الشعور من الأساس. العجز عن تقديم المساعدة لآخر مهما كنت أريد ذلك بصدق. العجز عن الاندماج مع الآخرين. العجز عن الاستمتاع بالوقت. العجز عن التذكر. العجز عن الفهم.. العجز عن التوقف عن التفكير. أكرهه حتى في أشياء بسيطة كالعجز عن إتمام المكالمة.. عجز الإتصال بالإنترنت.. العجز عن العثور على نتيجة للبحث! العجز هو أسوأ كوابيسي!

بالمناسبة، هل حكيت لك عن كوابيسي من قبل؟ أنا أتمتع بخبرة طويلة فيها حتى أنني في بعض الأيام أفقدها. كان الخوف من أن ينساني أهلي ويتركوني ورائهم هو أول كوابيس الطفولة. لو أن محللاً نفسياً تطفل على هذه الرسالة ربما فسر ذلك بشعور عميق بالإهمال، بأنني هامشية وأنه من السهل أن يحدث لي أي شيء دون أن يلحظ أحد غيابي. كان هذا الكابوس يتكرر يومياً حتى أنه لم يعد مخيفاً. يرحل الجميع ويتركونني في البيت الذي لم أحبه أبداً وحدي، وأحدهم يطاردني بسكين الفاكهة الخضراء التي لم أحبها أبداً. وأنا محاصرة هناك في ذلك الشارع الذي يمثل في عقلي الباطن المنفى. ربما تضحك الآن حين تتخيلني مرعوبة من سكين فاكهة خفيفة كالورقة لكنها فعلاً كانت مرعبة.

في أيام أخرى، كان الكابوس هو أنني خرجت من البيت بالفعل وأعجز عن العودة إليه مجدداً، ذلك البيت المقبض الذي لا أحبه يصبح دخوله أمنية بعيدة أبذل الكثير من المجهود والمغامرة كي أحققها.

أما الكابوس الذي لا يزال يلاحقني حتى الآن، هو الغرباء الذين يحاولون اقتحام البيت ويفلحون في ذلك فعلاً وأنا أحاول أن أختبئ في كل بقعة فيه وأستيقظ في كل مرة وهم على بعد خطوات مني.

أتذكر الآن الكابوس الأسوأ لي. كنت أحلم مرارًا بأن هؤلاء الذين أعرفهم ليسوا هم من أعرفهم. وأن كيأنا غامضًا ومخيفًا يسكن أجسادهم. كان الكابوس قاسيًا لدرجة أنه يفجعني في أقرب المقربين مني، أتذكر حتى الآن شعوري بالرعب وأنا أكتشف في الحلم أن أختي ليست أختي ولا أُمي ولا أخي، كان الكابوس يززع بكل قسوة آخر خطوط أمانني.

أذكر أيضًا كابوس السقوط والتشبث بأحبال الغسيل المهترئة. مرة أنجو ومرة أسقط ومرات أظل عالقة في المنتصف مرعوبة حتى من أن يمسنني الهواء ويدفعني للسقوط وأتذكر أن هذا كان أقسى كثيرًا من السقوط الحقيقي.

أتذكر كذلك كوابيس موتي. كان أكثر ما يوجعني هي تلك اللحظات الأولى بعد أن أفارق الحياة. حين أسمع كل ما يدور حولي وأعجز عن الكلام وعن الرد، أو حتى عن البكاء علي!

وأتذكر الأقسى، ذلك الكابوس المركب لرحيل من أحبهم. وتحديدًا الليلة الأولى بعد رحيلهم، حين أنام وأحلم بأنهم لا يزالوا هناك، وأبكي طويلاً حين أستيقظ، في منامي، لأجده ليس مجرد حلم وأنهم رحلوا فعلاً فأخاف أن أستيقظ فعلاً وأنت تعرف البقية!

في ليالٍ كثيرة أعيش أصنافاً مختلفة من الحزن مسبقًا. أبكي وأنا نائمة، أستيقظ مفزوعة وأثر الألم لم يزل بعد من قلبي، أشكر الله أنه مجرد حلم ثم أفكر: وماذا أفعل حين أستيقظ وأجده حقيقة؟ رأسي لا تجيد إلا لعبة الاحتمالات والخوف، حتى أنني حين أواجه الخوف / الألم الحقيقي أجده أهون كثيرًا من ذلك الذي عشت تحت تهديده، حتى أن ابتسامته

حمقاء تفرض نفسها على وجهي في الوقت غير المناسب أبداً «دا طلع زي
شكة الدبوس!».

ربما ورثت هذه اللعنة من جدتي؟ حكّت لي أمي أنه حين غاب
الخال أحمد على الجبهة واندلعت الحرب، كان التلفزيون يحاول مواكبة
الحدث، لكنه لم يبال بالقلوب الملتاعة، عرض أفلاماً قاسية مليئة بالأشلاء
والدماء تحكي عن حرب الاستنزاف والنكسة. وكانت جدتي كلما اخترقت
رصاصه زائفة قلب بطل في الفيلم تبكي وتصرخ «مستحيل أحمد يكون
عايش وسط كل دا». لم يخبرهم أحد بما حدث وإنما عرف قلبها كل شيء.
بكت كثيراً بينما الآخرون كانوا يحاولون التعلق بالأمل «ما تقوليش كده
أكيد عايش! إن شاء الله هيرجع».

حكّت لي أمي بدهشة أن الضباط حين طرّقوا بابهم بعد عشرات الأيام
حاملين نعشاً خالياً، وقدموا لهم ما تبقى من رائحة الخال الغائب صمتت
جدتي ولم تنبس شفتها بصرخة واحدة. كانت أمي مندهشة أمام صلابة
الجدّة، أمام ابتلاعها الصدمة التي أصابت جسدها بالمرض فيما بعد، كما
تقول، ولكنني فهمت أنها أفرغت حزنها عليه كاملاً مسبقاً، ولما حانت
لحظة الوداع الحق كان قلبها فارغاً.

٢٠١٦-٥-٣٠

قليلون من يساعدونك على أن تحافظ على ما تبقى منك، يخبرونك أنك على صواب، وأنت ربما لن تصل لما تريده، لكنهم يفهمون جيداً أنك إن وصلت لما تريد بعد أن خسرت نفسك لن تكون سعيداً أبداً، ويعرفون أيضاً أن ما تريده إن تطلب منك أن تخسر نفسك فهو بالتأكيد ليس كما تظنه.

لذلك فأنا التي يتسرب الناس من حياتها كالماء أحياناً دون أن تشعر، وأحياناً تشعر، ولكنها أصبحت أوهن من أن تتمسك بهم، أشعر بالخوف من أن يتسرب هؤلاء من حياتي.

ما نريده، ليس صعباً ولكن الآخرين دائماً ما يوهموننا أنه كذلك، أنه علينا التنازل والخسارة، وخوض معارك، وممارسة الألاعيب معقدة لنصل إليه، ونحن من الأساس نريده فقط لنستريح! أنا أكره ذلك وأكره أن أضطر يوماً لفعل ذلك، أن أضطر لأن أحسب كل خطوة، وأفكر في كل كلمة وأدرس مشاعري قبل أن أعبر عنها، وأمرر ردود فعلي على عشرات «الفلاتر» قبل أن أخرج أحسنها شكلاً للناس.

أكره ذلك، وأشعر بالحنق لأنني إن لم أفعل ذلك يعتبرونني لم أنضج بعد بما يكفي، وكأن كل هذه الألاعيب والأحاجي ليست المعنى الحرفي للصبيانية والحمق!

للمرة الأولى أشعر أن الخطأ ليس عندي، أشعر بيقين شديد بأن من يضطر للدخول في هذه المتاهات إنما يفعل ذلك فقط لأنه لا يعرف ما

يريده، لأننا حين نعرف ما نريد نرى الطريق إليه واضحًا، ولا نطبق صبرًا على تضييع الوقت في احتمالات أخرى.

أشكر الله على الإشارات التي يرسلها يوميًا وأراها، على ومضات النور المفاجئة، وحدسي الذي لا يمكنني تبريره بالمنطق ولكنه يكون صائبًا، وأشكره مرة أخرى على أنني أتبع إحساسي، وأشكره ألف مرة على من يربتون علينا بحنان، ويطمئنونا أننا غرباء، نعم.. لكننا ما زلنا حقيقيين.

٢٠١٦-٦-٥

إنه الاكتئاب، أصبحت أعرفه جيداً، الغرفة المظلمة، والهروب إلى الشاشة، والرغبة في الاختباء داخل أي فيلم أحبه أو حتى لا أحبه، المهم أن أضيع خارج الزمان والمكان. الرغبة في الهروب من السيبى حتى ولو للأسوأ، المهم أن يحدث أي تغيير. أتمنى الدخول في غيبوبة طويلة لعلّي أستيقظ وأجد شيئاً تغير.

بمناسبة التغيير، ألاحظ في الفترة الأخيرة، منذ أن قررت أن أنتبه للإشارات، أن كل شيء حولي يحرضني على التغيير، وأنا مرة أخرى أتأكد أنني أجبن منه، ذلك الجوع للأمان يجعلني أتشبث بأي حال استقرار حتى لو كان استقراراً على وضع سيئ، حتى لو كنت مستقرة على بركانٍ من نار أجد نفسي أكسل من أن أنهض وأبتعد، وأفضل دائماً أن أبقى في مكاني وأتعب.

أحياناً أشعر أنها رغبة لا إرادية في تعذيب الذات، أنني أستمتع بهذا الموضع حيث أشعر بالظلم أو بالمعاناة وكأنني أشعر أنني لا أستحق الراحة، وأحياناً أشعر أن هذا عرض آخر للاكتئاب لا أكثر ولا أقل، أو أن هذا جانب كرهه من شخصيتي وأنا أنكره بمنحه هذه المبررات الكبيرة الأكبر من حجمه الحقيقي.

اكتشفت مؤخراً، أنني أحياناً أرتكب الخطأ الذي كرهت صديقنا الوغد لأجله، أنا أحياناً أحب مقعد المتفرج، أحب أن أشاهد الأحداث تدور حولي دون أن أ تدخل بها أبداً، حتى لو كان بعضها يخصني، أستمتع

بالاستسلام التام بأن أترك الأقدار ترسلني حيث تشاء، كأنها تحد في لعبة الفيديو التي أحبها، أريح نفسي فيها من عبء تحديد أعدائي وموضع المعركة وأترك للكمبيوتر كل شيء وأتحدى نفسي في أنني مهما كان الوضع عشوائياً وغير مخطط له سأنجح في تخطيه، نفس المتعة التي أشعر بها حين أستمع للراديو وأتركه يحدد لي الأغنيات التي أسمعها، وأجبر نفسي على تحمل أغنيات لا أحبها، وهي المتعة نفسها التي أشعر بها حين أسافر على الطريق وأنا أعلم أنه ما من شيء في يدي، إنني أتنازل عن حريتي في الاختيار واتخاذ القرارات والمبادرة بأي تصرف بمجرد أن أجلس على كرسي سيارة الأجرة، ونترك جميعنا للسائق زمام الأمور.

جزء من حبي لمقعد المتفرج، يرجع إلى شعوري بعدم القدرة على الانتماء لأي شيء أو شخص، وجزء آخر يرجع إلى شعوري بعدم اليقين بأي شيء، أنا أعلم تماماً أن ما أراه ليس الحقيقة، وما يرونه ليس الحقيقة، وكل ما يحدث هو مباراة بين مجموعة من الحمقى معصوبي الأعين يظنون أنهم يرون حتى ما وراء الجدران، وحين أجلس على مقعد المتفرج أستمع بالضحك على سذاجتهم، وأناى بنفسي عن المشاركة في اللعبة، لا أعرف حين أفعل ذلك أكون محقة أم مخطئة، فأنا لا أبالى. لا شيء يهم، لن يتغير شيء لو عرفت، وأنا لن أتغير حين أعرف.

٢٠١٦-٦-١٦

أريد أن أختبئ، أشعر كأنني دخلت الفيلم بعد ساعة من بدئه، لا أفهم شيئاً سوى أن الجنون يسيطر على الجميع، البداية الهادئة المحببة فانتني وأنا الآن في ذروته، أتمنى لو أختبئ.. لو يغشى عليّ أو ببساطة أغفو حتى ينتهي هذا الفيلم ويبدأ آخر أعيشه من بدايته.

لم أفكر أبداً في الانتحار، أنا أحب الحياة مهما كانت بائسة، لكنني أفكر كثيراً في الهرب، أتمنى لو أن البدايات في بلادنا سهلة لهذه الدرجة التي نراها في الأفلام. يراودني شعور الطفولة، ذلك المأزق حين تتلوث الورقة الوحيدة المتبقية في كراس الجغرافيا ذات الورق الخفيف الهش بمحاولاتي المرتبكة لرسم خريطة الأولى. أمسح ما خططته بالرصاص برفقٍ ولكنني لا أزال أرى الخطوط القديمة واضحة.

أتذكر ذلك الشعور الذي كان يراودني في سنوات الطفولة وأنا أرسم أو أكتب بالرصاص، المحاولة الأولى تكون واثقة أكثر من اللازم، وحمقاء أكثر من اللازم أيضاً، أكون مطمئنة لأن الكتابة بالرصاص قابلة للمحو، ولكنني لا أدرك إلا بالتجربة أن ذلك الحفر الغائر الذي يتركه خطنا الوثائق أكثر من اللازم غير قابل للمحو، تأتي المحاولة الثانية أكثر خفة، والثالثة أخف، في الرابعة أتردد أصلاً قبل أن ألامس الورقة بالقلم.

أشعر بالضجر، أريد أن أهد كل شيء وأبدأ من جديد، هكذا أفعل دائماً، أهرب من محاولات الإصلاح والترميم وأستسهل البدء من جديد، أود لو أن ما أفعله في لعبتي المفضلة يمكن أن يتكرر في الحياة، حين أرى

أن الأمور لم تعد تسير على ما يرام أنهي اللعبة فوراً وأعيد المحاولة في ظروف أخرى، أو على الأقل في رقعة أخرى، أو أمام أعداء آخرين.

أنا متعبة.. أدور في حلقة مفرغة من السخط واليأس والإحباط والأمل، حلقة مفرغة من الغضب غير المكتمل، طوال الوقت قلبي يشبه قداحة نصف فارغة، يشتعل بشرار قصير عاجز عن أن يلامس الغاز فيشتعل، ومنتال متعب لا يسمح لي أن أهدأ ولو كجثة باردة.

عيوني مطفأة، وكل ما أتمناه أن أحصل على فرصة لأشبع من نفسي، لأن أتكور عليها في ركن هادئ، أربت على كتفي بنفسي أو أحتضني. أخبرني أنه لا بأس، وأن كل هذا سيمر، وأنه حين يمر لن ينقلني للأسوأ.

هوامش: منذ أكثر من أسبوع أنام بعمق مثير للدهشة، ولكنني لا أشعر بالراحة. دائماً أنا متعبة أريد أن أنام أكثر وكأنني أغرق في ثقب أسود، منذ أكثر من أسبوع وأنا لا أحلم، أو ربما لا أتذكر أحلامي، وهذا شيء مزعج أكثر من الكوابيس المزعجة التي كانت تراودني أخيراً.

للمرة الأولى، شعرت بالخوف داخل البيت الخالي، وبالكآبة لتناول الطعام وحدي، والرغبة الحادة في البكاء دون سبب واضح، ورغم كل ذلك، أخطط في عقلي، تماماً وكأنني مختلة، لتجارب ممتعة أنوي أن أخوضها في الأيام المقبلة.

أشتاق للسفر جدًّا، سفر طويل على طريقٍ، وجهةٍ وصولٍ لم أرها من قبل، لرؤية أشخاص لا أعرفهم ولا يعرفونني ولا يرسمون لي أي صور ذهنية مسبقة، أشتاق لأن أسمح لتلك الشخصية التي أحبها داخلي أن تظهر، أن تسيطر عليّ وأن يحبونني لأجلها.

أشعر أن تلك النزعة لعدم الانتماء لأي مكان أو كيان أو شخص داخلي سببها سفر طويل مقدر لي في المستقبل، أو أتمنى ذلك.

٢٠١٦-٦-٢٦

أنا متعبة يا صديقي، كأني أسير منذ ألف عام في حقل الغام ممتد دون نهاية، أعصابي المشدودة خوفاً من المساس بواحد من ألغامه تتمنى كل ثانية لو ينفجر أحدها بدلاً من أن أعيش خوف انفجاره ألف مرة، في كل مرة أتخطي واحداً وأجد نفسي لا أزال هنا أشعر بالخيبة.

أنا مستهلكة لدرجة أنني لا أجد وقتاً ولا روحاً لأكتب لك، عشر مرات سابقة، وطوال شهر كامل وأكثر كنت أحاول أن أكتب لك ولكنني فشلت، وهذه المرة الحادية عشرة.

كوايس الكلام المحبوس في حنجرتي وصوتي الذي لا يسمعه أحد عادت أثناء نومي من جديد، ولكن المرعب أنني هذه المرة أعيشها في كل وقت، عاجزة عن الشكوى، عن الصراخ أو التعبير، أو حتى الوصول لذلك الجزء الموجوع في قلبي، حتى بيني وبين نفسي.

قلبي عصي عليّ كطفل يصرخ ولا أفهمه، لست أمه لأحسه، أو يطمئن إليّ، وليس يخص غيري لأتجاهله لأن هناك من سيهتم به في النهاية، قلبي يراوغني كطفل يتيم أيقظوني من نومي ليضعوه بين يدي، وقالوا لي: «كوني أمه» وأنا مذعورة!

قرأت أحدهم يوماً كتب، أو ربما أنا كتبت، عن ذلك الشعور بغصة في مكان لا يصله شهيقك ولا زفيرك، كآخر نقطة عصير في العبوة المغلقة لا يمكن للشفاط القصير أن يصل لها ويخرجها وتظل هناك حتى تمل فترمي العلبة كلها، وبعدها تجف أو تتعفن.

أريد أن أصل لهذه النقطة الأخيرة في روحي، حيث يوجد الوجد، لا
أريد أن أعالجه، لم أعد أحلم بذلك، أريد فقط أن أتعرفه.

٢٠١٦-٨-١٤

في هذا العيد شعرتُ بالفرحة، ربما لأنني عرفت للمرة الأولى رعب عدم اكتماله، للمرة الأولى كان البيت خاوياً في ذلك الوقت.

كنتُ أتجول في كل ركن وأتخيل أُمي لو هنا كيف كان سيبدو الآن؟ أعيش وحدي شهوياً طويلاً دون أن أشعر بالفرح ولكنني هناك، في البيت حيث البيت، شعرت بأنني ضئيلة والبيت واسع وكئيب، وأنني مرتبكة لا أعرف من أين تبدأ مثل هذه الأمور؟ من أين يبدأ الاستعداد للعيد؟

وحين عادا، أُمي وأبي، وعادت الأمور «طبيعية» هداً الفزع وعدت من جديد «ابنة صغرى تستعد لاستقبال العيد».

في هذا العيد وجدته دون أن أقصد أخرج من اندماجي باللحظة وأعود من جديد لمقعد المشاهد، ووجدت الصورة مرضية، وكذلك التفاصيل، اغمض عينيك وتخيل معي المشهد: هناك ضحكات من القلب، بالونات، طعام شهوي، لا أحد خائف، لا أحد منزعج، ولا أحد كئيب، وكأننا اتفقنا جميعاً دون كلام أن نعيش اللحظة وألا نفكر في ما بعد، والأهم، توقفنا عن التفكير في ما مضى.

لأول مرة غاب الخوف والتوجس من انفجار الموقف فجأة، غاب الهم، الحمل الثقيل على القلب، الضحك المتردد بانتظار اللطمة القادمة من الحياة بعد هذه الهدنة.

في هذا العيد أيضاً رأيت وجهه الآخر، في تلك اللحظة التي انغمسنا فيها جميعاً في اللعب، وكأننا نجاري الصغار لإرضائهم شعرت أننا في

الحقيقة نرضي أنفسنا وندلل ذلك الطفل الذي أتعبه الجد كثيرًا، في تلك اللحظة رأيت وجهه الذي افتقدته عمرًا.

ارتبكت مشاعري، بين الرضا بما نلته أخيرًا، والسخط لتأخره، والإشفاق لأنه أيضًا كان يفتقده ولم أعرف حتى الآن لماذا اختبأ هذا الوجه طيلة هذا الوقت؟ لماذا كان علينا أن نخبر كل هذا الوجد قبل أن نصل لهذه اللحظة؟ وماذا كان يحدث لو وصلنا إليها في الوقت المناسب؟

كنت ممثلة بالأسئلة، ولكنني قررت ألا أنتظر الإجابات وحاولت أن أنغمس في اللحظة قدر الإمكان، وشعرت بامتنان حقيقي لجنديها المجهول، والامتنان الحقيقي لله الذي منحني القدرة على تذوقها قبل أن تضيع.

٢٠١٦-٩-١٦

ماذا يرعبني أكثر من الجنون؟ أن أفقد نفسي دون أن أشعر، أن أتغير ببطء وأتحول لذلك المسخ الذي أخافه، أن أشبه تلك الكعكة في الثلاجة، كانت طيبة جداً ولكنها ظلت هناك أكثر من اللازم، إلى جوار الكثير من الأشياء التي لا تشبهها فالتقطت من كل ما يجاورها القليل من النكهة الكريهة فأصبحت الأسوأ بينهم على الإطلاق.

في الماضي كنت أخاف أن أشبهه، الآن أشعر أنه، مقارنة بمن آراهم الآن، ليس بهذا السوء، الآن أخاف أن أشبههم، وأخاف أكثر ألا أشبه نفسي.

أنا أتغير.. أعرف هذا وألمسه، وأراقبه برعب، لأن بعض التغيير ينتهي إلى «فراشة» وبعضه ينتهي إلى «جيفة متعفنة»، ولا أدري لأي المصيرين أنا أقرب؟ أفضي لصديقتي المقربة بأن طقس السخبط اليومي الذي نمارسه ضروري، أخبرها بأننا لو لم نفعله سنكف عن الدهشة، سنكف عن رؤية الأشياء القبيحة كذلك، ويوماً بعد آخر سننسى أنها قبيحة؛ ولكنني من الداخل، لا أتمتع حقاً بكل هذه الثقة التي أتحدث بها.

طيلة عمري أشعر بأنني لا أتواجد في المكان المناسب أبداً، أنا غريبة للأبد، لم أشعر أبداً بأنني أتمي إلى حيث أكون، ولكنني الآن أشعر أكثر بأنني لست في الوقت المناسب! أشعر وكأنني طفل مبتسر تعجل الخروج للحياة فرأته هشاً وقررت أن تختبر مدى جدارته بأن يعيش.

أخاف أن أكون كالآخرين الذين اعتبرهم فقدوا عقولهم وأضرب كفاً بكف وأنا مندهشة كيف أعمى الله عيونهم عن الحقيقة لهذه الدرجة؟

أتذكر سذاجتي القديمة، أتذكر الكذبات الساذجة التي انطلت عليّ لسنوات
وأفكر من قال إنني الآن لا أعيش واحدة؟

قيل لي مرارًا إن الشك يقود لليقين الأعظم، ولكنني أخشى أن أجن قبل
أن أصل لذلك اليقين! تلك الكلمة الوهمية التي بت أصدق في المستحيل
أكثر منها، تلك الراحة التي لا أدري أيصل إليها الحمقى أم الحكماء؟

مرة أخرى، أقول لك إنني متعبة، أشعر هذه المرة أنني متعبة أكثر من
أي وقتٍ سابق ولكنني رغم ذلك، أشعر للحظات بأنني أختبر حدودي
وأختبر قدرتي على الاحتمال.

٢٠١٦-١٠-٣

الرسالة ٢٨

هل تعرف ما معنى أن أكتب لك في هذا التوقيت؟ للمرة الأولى أترك كل شيء وأسدل فقاعة زجاجية حولي وأتظاهر بأنني لا أعبأ بكل هذا الضجيج والصخب حولي وأكتب لك.

بالأمس، فعلت كما أفعل كل يوم، كنت ممثلة بالكلام والأفكار حتى أنني كتبت السطور الأولى في رسالة إليك داخل عقلي وكررتها مرارًا ولكنني لم أكتبها أبدًا، فعلت ما أفعله كل يوم ووضعتك / ووضعت نفسي في مؤخرة قائمة مهامى اليومية.

قفزت لذهني بالأمس تعليق صديقة، تدهش لما بدا لها من صلابتي وصراحتي في التعامل مع مشاعري بهدوء وبرود جراح، وأنا نفسي اندهشت وأنا أفكر في الأمر نفسه، وتساءلت مرارًا متى تخليت عن صبيانية الأطفال ورغبتهم السخيفة في التمسك بما لا يملكونه؟ ولا يمكن أن يملكونه؟ هل هو الخذلان في الأحلام التي تمسكت بها ولم تتمسك بي بالدرجة نفسها؟ أم تلك الصورة التي لا تفارق ذهني عن الأشياء التي أحيانًا ما يدمينا تمسكنا بها؟ أم أن السبب هو أحلامي التي تحققت كما تمنيتها وسعيت إليها بدقة تامة ولم تمنحني سوى التعاسة؟

هل يسمى هذا نضجًا أم أنني شخت؟ أو أنا فقط متعبة ولا أريد المزيد من المعارك؟ لا أعرف ولكنني أعرف جيدًا أنه لم تعد لدي أي رغبة في التمسك بأي شيء / شخص، أريد أن يمر كل هذا، أن يمر كل شيء ولا أريد من الدنيا سوى تلك اللحظة النادرة التي شعرت فيها بالسكينة

الحقيقية، لا شيء لي ولا شيء عليّ ولا أنتظر أحداً، لا أريد من الدنيا سوى هذا السلام؛ ولكنني لا أعرف إلى متى سيظل هذا مقنعاً بالنسبة لي.

أشعر بالحيرة، أنا التي تؤمن بأنه «كل شيء يحدث بسبب ولسبب»، لا أجد تفسيراً لكل هذا الذي حدث، وما زال يحدث، لا أعرف سر وجود ذلك الخيط الممتد الذي يصبح تارة واهياً جداً وأراه تارة طوق نجاة، لا أفهم شيئاً ولكن كل ما أعرفه أنني لست نادمة، بتسامح تام أصبحت أتعامل مع كل ما مضى، لم أعد ناقمة ولا غاضبة وكلما تذكرت ما ضاع أجد نفسي تلقائياً أتذكر أنني كنت سعيدة في لحظة ما، وأن هذا كان جيداً.

بالأمس أيضاً، وجدتني أشعر بالرضا، كررت لنفسِي: «سلاماً على ما صنعتِ بنفسك من أجل نفسك» وابتسمت. هل تذكر ذلك الشعور بالرضا الذي كتبت لك عنه قبل شهور؟ ما أشعر به الآن يشبهه، كانت روحي وقتها أخف، ولكنني أشعر بأن هذا الرضا الذي أشعر به الآن ليس مرهوناً بوجود ولا غياب أحد، تماماً كما قال بهاء طاهر «... ولما تفرق الذين اجتمعوا حولي.. ولما وجدت نفسي وحيداً.. اكتملتُ في تمامي».

متى أتخلص من كل هذا الخوف داخلي؟ أشعر طوال الوقت بأنني أحمل زجاجة هشّة، أخشى أن ترتطم بأي شيء فتفتت، أعرف أنني أقوى كثيرًا من هذا ولكن هل تعرف ذلك الشعور حين يكون رأسك متعبًا لدرجة أنك لا تطيق تمرير الفرشاة على شعرك؟ لن يقتلك بالتأكيد ذلك الألم الخفيف لتعثر أسنان الفرشاة بالشعر المتشابك.. ربما تفقد شعرة أو اثنتين أو خصلة كاملة ولكنك لن تموت بالطبع، ولكنك أحيانًا لا تتحمّله، لأنك تحمل ما يكفي من الألم داخل رأسك، لا تحتمل المزيد من الضغط الخارجي، هذا تمامًا ما أشعر به الآن.

كلما يرن الهاتف يستيقظ ذلك الخوف مجددًا، أخاف أن أسمع شيئًا، أي شيء، يسبب المزيد من الانزعاج، أخاف أن أفتح الرسائل الواردة، أخاف من اللون الأحمر يخبرني بوصول إشعارات جديدة، أخاف من الظرف الذي يقفز فجأة من جانب الشاشة الأيمن يخبرني بوصول بريد جديد، أخاف من أي شيء وكل شيء قد يفسد اللحظة الراهنة، التي ليست على أفضل حال، ولكنني على الأقل لست مستعدة لما هو أسوأ.

أكرر على نفسي السؤال الذي لطمني به صديق: «لماذا تفضلين الأمان على أي شيء آخر؟» وإلى الآن لم أجد إجابة، وإلى الآن لم أعرف متى أصبحت كذلك ولا من أين ينبع كل هذا الخوف داخلي؟!

أشعر دائمًا بقلق قطة منزلية على وشك الولادة، تحمل أطفالها في أحشائها كما أحمل أحجارى على صدري، تدور في كل مكان تبحث عن

مكان آمن تأويهم داخله، ولا يهدأ لها بال أبداً حتى تجده، على الرغم من أن البيت بأكمله آمن بالنسبة لهم! هل تعرف ذلك القلق؟ ذلك القلق الذي يدفع قطرة لابتلاع أطفالها إن لم تجد المكان آمناً بالنسبة لهم؟ هذا القلق يلازمي حتى وأنا نائمة.

يبدو أن هذا القلق تطور إلى الحرمان من النوم هذه الأيام، عدد ساعات النوم التي أحظى بها يتقلص، لحظة أن أغمض عيني يتحول الفراش إلى سرير من الشوك، وأكاد أبكي مراراً لخوفي من ألا أنام أبداً، لم أعد أحس ذلك الخدر اللذيذ للحظات ما قبل الغياب في النوم، بل أصبحت أسقط في النوم، كما لو أنني أغيب عن الوعي من التعب لا أنعم بالنوم.

ماذا يثقل ضميري لهذه الدرجة يا عزيزي؟ لا أعرف، ولكنني أعرف جيداً أنني تائهة، أتقبل برضا أن هذا الوقت سيمر، وأنني في النهاية سأتوقف عن الدوران، أنا أشبه في هذه اللحظة النحلة الخشبية التي أدارها طفل بكل ما يملك من قوة وهي تسير لاتجاه غير معلوم أثناء دورانها، ثم تسكن في النهاية، في مكان ما، وفي لحظة ما لا أحد يعلمها حتى هي.

I'm tired, boss. Tired of being on the road, lonely"
as a sparrow in the rain" - Green Mile

٢٠١٦-١١-١

هذه اللحظة ستمر، أنا أعرف ذلك جيداً، ولكنني لست واثقة مما يأتي بعدها هل سيكون سعيداً أم أنني كالمعتاد، سأشتاق لهذه اللحظة على سخافتها وأردد مرة أخرى: «على الأقل كنت نفسي».

مررت بالكثير وحين أعيد النظر للوراء أجد نفسي حقاً قطعت مسافة شاسعة، أشعر بالخوف، ذلك الخوف الذي يتنبأك حين تذوب آخر ذرة من حماسك وشجاعتك للمضي نحو مكان مجهول، وقد قطعت مسافة طويلة جداً بعيداً عن بيتك، عن أمانك ومنطقة راحتك، وتصبح تماماً في منتصف الطريق، أو بعد المنتصف بقليل، أنت بعيد كثيراً عن أمانك، وبعيد لمسافة غير معلومة عن هدفك، وكلا الطريقين يحمل نفس القدر من المخاطرة! والأسوأ من هذا أنك لست واثقاً حقاً أنك تسير باتجاه ما تريده، أو أن ما تريده هذا سيمنحك ما تريد أو تشعر أنك لا تسير حقاً، ولكنك تدفع دفعاً نحو هذا الاتجاه، لست تنزلق من هاوية حتى، بسرعة أكبر وألم أقل، وإنما يتم سحلك على جبل مليء بالتواءات والشوك! ولا تعرف كم تبعد قمته ولا حتى ما ينتظرك عند تلك القمة، هل يستحق الأمر كل هذا التفكير حقاً؟ هل ينبغي أن نأخذ الحياة بهذه الجدية؟ هل هؤلاء الكبار المخيفين بهذه الخطورة حقاً؟ أم كما قال «عماد أبو صالح:

«دائماً يتواطأ الهواء معهم وينفخ جلايبهم لكي يظهروا في عيوننا الصغيرة أضخم من حقيقتهم.»

هل ينبغي أن نفكر بهذا القدر في أنفسنا؟ هل يجب أن نعرفها ونقترب منها لهذه الدرجة؟ أم فقط يكفي أن نعرف ماذا نريد؟ حسنًا. في هذه اللحظة أنا أعرف ماذا أريد، ولكنني لا أعرف فعلاً هل أريده للدرجة التي تجعلني أصل له كما وصلت لغيره؟

اليوم، شاهدت فيلمًا مرعبًا، يصنف كفيلم غموض لكنه أكثر رعبًا من أسوأ أفلام الرعب بالنسبة لي، الفيلم يحمل اسم A Good Marriage بعد أول خمس دقائق منه، تكتشف الزوجة التي أمضت مع زوجها قرابة ٢٥ عامًا أو ٣٠، لا أذكر بالتحديد، أن زوجها الطيب المحبوب الذي تهيم عشقًا فيه ويعيشون معًا حياة مثالية للغاية، قاتل متسلسل.

هل تدرك المأساة؟ ٣٠ عامًا تحت سقف واحد لا تكون أحيانًا كافية لأن تعرف الشخص الذي تواصل حياتك معه، لا يخفي كل منا «قاتل متسلسل» داخله بالطبع، ولكن هذا يذكرني بالتحديد بالشعور الذي كان يراودني في طفولتي، حين أجد نفسي فجأة أتساءل في الفصل كمن استيقظ لتوه من الغيبوبة، أين أنا؟ ومن هؤلاء؟ وماذا يجعلني أثق بهم هكذا لأجلس على تلك المسافة بينهم؟

لا أعرف ما سبب هذه الحالة ولكنني أريد أن أبكي، كل يوم أكتشف شيئًا جديدًا، أحيانًا يكون تافهًا، ولكنه يفزعني.. يجعلني أشعر بالغربة، أشعر أنني لا أتمي لأي مكان أو شخص، أشعر طوال الوقت نفس شعور بطلة الفيلم، وهي تنام الليلة الأولى إلى جوار زوجها الذي اكتشفت لتوها أنه قاتل متسلسل.

هل تعرف ما هو الأسوأ من اكتشافها؟ حين تضطر أن تخبر الناس بذلك، ثم حين لا يصدقونها، وحين يكتشفون أن ما تقوله معناه ببساطة

أنها كانت طوال ذلك الوقت أكبر حمقاء في العالم، أما ما هو أسوأ على الإطلاق، هو أن تضطر لأن تتحول إلى نسخة منه كي تواجهه.

هذا هو الأكثر إيلاماً على الإطلاق، أن يقتلك أحدهم معنوياً كل يوم، بدم بارد وبكل هدوء وهو يعلن للجميع كل لحظة كم يحبك، ويرى الآخرون كم أنت محظوظ به، وحين تكتشف الحقيقة، يكون كبلك بكل هذا الحب المعلن أمام الآخرين، والأسوأ هو أنك تكره نفسك حين تضطر لقتله، دفاعاً عن النفس، الأسوأ أنه يجبرك على أن تشبهه بشكل ما، أن تلعب وفق قواعده لأن قواعذك لن تقودك للانتصار أبداً!

لا عليك يا صديقي. كل شيء يمر. حتى تلك اللحظة، حتى شعورك بأنك تكره نفسك، حتى خوفك من أن تشبهه، حتى اللحظة التي تكتشف فيها أنك، للأسف، أصبحت تشبهه، كل شيء يمر، حتى نحن وكل ما نعيشه لهذا العالم.

٢٠١٧-١-٣

كان ذلك في يناير، أذكر كل ما حدث تلك الليلة بالتفصيل، كنا نعرف أن زيارته، مهما طال، ستكون عابرة! ورغم ذلك لم أصدق أبداً أنه رحل. بكل سذاجة وعناد وجنون أخذت أضمه وأحدثه، أهز كتفيه، أجرب ذلك البخاخ الذي كان يدسه في فمه ليمنحه، بالتقسيط، ما تبقى له من أنفاس في الدنيا.

كالعادة كنت متمسكة بأمل ساذج وغير منطقي يقول لي إنه سيكون على ما يرام، كررت ذلك مراراً بثقة لا أعرف كيف توهمتها، كيف توهمت أنه بمجرد رفضي القوي لشيء مفزع كهذا لن يحدث أبداً!

أرسلوا في طلب الطبيب فلم يأت، عدوى الرفض التي انتابتي سيطرت على إخوتي، وأصر أخي على نقله للمستشفى، بينما كان يستعد للمغادرة، تقول أُمِّي إن نداءنا عليه ردَّ إليه الروح مرة أخرى، نظر إليَّ في عيني، نظر لنا جميعاً نظرة الوداع، ثم رحل للأبد!

واصلت الرفض، دفست رأسي في الوسادة وبكيت حتى غرقت في النوم، رفضت أن أستيقظ وأودعه، بينما كانوا يجهزونهُ للرحيل، كنت نائمة، أحلم به، أجلس معه في الغرفة وأقنع نفسي أن ما من شيء قد حدث! رفضت أن أقبله للمرة الأخيرة أو أُلقي عليه النظرة الأخيرة، فضلت أن أقضي تلك اللحظات معه، مع روحه، لا جثته!

في مارس تكرر السيناريو بشكل مختلف، حين أخبرني أنه أصيب بالسرطان رفضت أن أصدق، أنكرت الأمر بالهستيريا نفسها، أخبرته

وأخبرت نفسي مرارًا أنه لن يموت، أنني لن أذوق أبدًا هذا الوجع! وكأنني
أظن الحياة تطلب رأيي ورفضني لمجرد التفكير في الأمر يعني أنه لن
يحدث أبدًا!

حين اختنق الحب ببطء كنت أرفض التصديق، كنت أرفض أن هذا
سيحدث، أنكره بشدة ولا أسمح لنفسي بالتفكير فيه، حتى تحلل الجثمان
أمام عيني وأنا لا أزال أراه جيدًا وبخير، لم أدرك الحقيقة إلا حين حاولت
التمسك به، ووجدت أصابعي تقبض على الفراغ.

هل تظنني تعلمت؟ بالطبع لا! حتى هذه اللحظة حين قرأت صديقة
تكتب أن والدتها ماتت إكلينيكيًا والأطباء يرفضون فصلها عن الأجهزة
لترحل بسلام، ضببت نفسي متلبسة أكتب لها، بالسذاجة نفسها أو قل
بالحماقة نفسها، ربما لا يزال هناك أمل يمكن أن تحدث معجزة!
متى أكبر يا صديقي؟

٢-٢-٢٠١٧

الرسالة ٣٢

«أنا تعبت ومش عايزة أكمل».. أعود بالذاكرة لأحصي كم مرة رددتها بيني وبين نفسي وكم مرة قلتها في الواقع؟ لم أقلها أبدًا. لو قلتها مرة واحدة لتغير الكثير، لشعرت ولو لمرة على الأقل، أنني لست أقسى من الآخرين على نفسي.

كنت أعرف دائمًا الحدود الفاصلة، أعرف أين ينبغي أن تنتهي القصة، ولكنني أستمر لأنني كنت دائمًا أختبر حدود صبري، أختبر حدود احتمالي وطاقتي، كنت - بسذاجة - أبتسم برضا حين أكتشف أنه بوسعي التحمل أكثر، ولا أعرف أن كل هذه الصخور على صدري تفتت أقدامي.

في كتابٍ عن الابتزاز العاطفي، أدركتُ أنني وقعت ضحيته مرارًا، شعرت بالسخط، ثم بالفزع حين اكتشفت، بعد بضع صفحات أنني مارست ضد نفسي الابتزاز الذاتي أكثر ربما مما مارسه الآخرون ضدي، كتبت مؤلفة الكتاب: «الابتزاز أحيانًا يتطلب شخصًا واحدًا، إذ يمكننا بسهولة القيام بكل عناصر الابتزاز وحدنا، ابتداءً من الطلب مرورًا بالمقاومة والضغط والتهديدات؛ فنكون بمثابة المبتز والمستهدف في الوقت نفسه، وهذا يحدث عندما يكون خوفنا من الرد السلبي للآخرين قويًا، وسيطر علينا خيالنا فنفترض أننا إذا طلبنا ما نريده، فإنهم سيتقذروننا، وسينسحبون وسيغضبون ونتمسك بحماية أنفسنا لدرجة أننا لا نقدم على أية مجازفة، حتى المجازفة البسيطة المتمثلة في سؤال الشخص الآخر: «ما رأيك إذا قمتُ ب.....»

نعم. احترفت ممارسة الابتزاز الذاتي ضد نفسي من الطفولة حتى الآن، في كل مرة كنت أظاھر فيها بأنني ناضجة وعاقلة وأحسب خطواتي جيداً، في كل مرة كنت أتخيل أنني أحمي كرامتي من الرفض، وفي كل مرة كنت أتحامل على نفسي كي لا أخذل الآخر، حتى لو كان هذا الآخر هو ذلك البائع الذي لا أعرف اسمه، ولكنه يلح إلى أنه يتوقع مني أن أشتري ٣ كيلوجرامات من البطاطس لا كيلو ونصف فقط مثلما أحتاج!

الأسوأ أنني لا أكتفي بما أفعله بنفسي، بل أتوقع من الآخرين أن يفعلوا الشيء نفسه، كمجاملة بسيطة لي، ثم أغضب حين لا يفعلون.

أغضب حين أجد نفسي وحيدة، حين لا يحاول أحدهم المساعدة وأنا في قاع تلك الهاوية وأنسى أنني في الأساس لم أصرخ، أنني خفت ألا يمد أحدهم يده فأشعر بالإهانة، فابتلعت هزيمتي في صمت وقررت أن أتعامل معها وحدي.

صديقتي أرسلت لي يوماً تلك المقولة لـ«محمد عفيفي»: «في استعراض للذين خذلوني في حياتي، أجد نفسي مضطراً للاعتراف بأن أحداً لم يخذلني مثلي» هذا بالضبط ما اكتشفته مؤخراً، أنا تعبت، ولكنني، كعادتي، سأكمل.

٢٠١٧-٣-١٢

أنا خائفة يا رفعت، أخبرتك بذلك مرارًا من قبل؛ ولكنني منذ أيام أشعر بخوف من نوع جديد، أشعر بالخوف على أطفالتي الذين لم أتمنَ أبدًا أن آت بهم للعالم! أخاف ألا أحبهم، أخاف ألا يحبوني، أخاف ألا أكون جيدة بما يكفي، أخاف أن أؤذيهم، أخاف ألا يحسنوا للعالم بما يكفي، وأخاف ألا يحسن العالم إليهم، وأخاف أن يعانوا يومًا كل هذا الخوف الذين أعيشه! أشعر أنني سأحملهم طوال الوقت كفرشات في برطمانات زجاجية كي أطمئن ألا يؤذهم العالم.

أشاهد برامج التلفزيون الكئيبة وأشعر بالرعب، أرى أشياء مفزعة ولا أتخيل كيف حدث هذا؟ رأيتُ مثلاً طفلة لم تبلغ الخامسة، روحها رائعة وابتسامتها كذلك، تورطت أمها مع زوجها في تعذيبها، حتى فقدت البصر! في تلك الليلة أردت أن أبكي طويلاً ولكنني لم أبك، فقط انكمشت روحي وشعرت بالخوف.

الأطفال، البالغون، النساء، الرجال.. الجميع يتعرضون لأشياء مفزعة دون أن يكون هناك ما يميزهم، هل تفهم قصدي؟ هؤلاء كانوا يعيشون حياة عادية جداً قبل أن يحدث شيء غير عادي في ثانية ليغير كل شيء، دون أن يفعلوا أي شيء يجعلهم معرضين لذلك!

الوضع يشبه ذلك المشهد من فيلم «Schindler's List» حين أمسك ذلك المجنون مسدسه وأطلق النار على امرأة عادية جداً لا يميزها أي شيء.. أذكر جيداً ما قاله أحد أبطال الفيلم وقتها: «لقد سحب مسدسه

وأطلق النار على المرأة التي كانت تمر قربه، كانت مجرد امرأة في طريقها إلى مكان ما، لم تكن أسرع ولا أبطأ ولا أسمن ولا أرفع من أي شخص آخر، ولم أستطع أبداً أن أخمن ماذا فعلت؟ أنت ترى أنه لا قواعد للعيش معه، لن يمكنك أن تقول لنفسك: إن اتبعت هذه القواعد سأكون آمناً».

أتجاهل منذ ما يقرب من عامين كل حديثٍ عن أخبار مزعجة أو مفزعة، لا أتورط حتى في النقاش في السياسة أو الأحوال وأبني حولي بحرص قوقعة احتمى داخلها لأنني لا أحتمل كل هذا الوجود، ورغم ذلك يصلني رغماً عني ما يكفي لإفزاعي!

ما يزعجني يا صديقي هو أنني أعرف أن هذا حدث ويحدث وسيحدث طوال الوقت، تذكرت ذلك الكتاب الضخم ذا الـ ٠٠٦ صفحة من القطع الكبيرة، الذي احتوى تاريخ «البشرية» في التعذيب حتى بداية الألفية الجديدة، ولم أفهم أبداً لماذا يفعل أحدنا بالآخر كل هذا؟ نحن دائماً بهذا القبح، لا شيء تغير، ولا شيء سيتغير وهذا هو المرعب!

٢٠١٧-٤-١٥

لو أن لي أمنية أخيرة في هذه الحياة يا صديقي، ستكون ألا أحتاج أحداً على الإطلاق، ألا أحتاجه فعلاً، لا أن أحتاجه وأتظاهر بالعكس، أو أتأقلم على الغياب؛ وإنما أتمنى ألا أشعر أبداً بالحاجة لآخر.

أكثر ما أحبه فيك يا صديقي هو شعوري بالأمان المطلق تجاه علاقتي بك، أنا أعرف جيداً أنك لن تخذلني، لن تغيب حين أحتاجك ولن أشعر بالحرج حين أريد أن أتحدث معك في مثل هذا التوقيت أو أفضي إليك بكل الأفكار الساذجة التي تدور ببالي، لن أفكر أبداً بما تظنه في حين أخبرك بأسراري الصغيرة، لن أخشى أن أتكلم أكثر من اللازم، أو أقل من اللازم، أو ألا تكون محادثتي معك «نموزجية» تخبرك بما أشعر به فعلاً، لا أكثر ولا أقل.

لن تخذلني أبداً يا رفعت لأنني لا أنتظر منك شيئاً، لا أكثر حتى هل تسمعي فعلاً أم لا؟ لا أنتظر ردّاً، ولا أحتاجه، أحب أن وجودك يساعدني في الاتكاء على نفسي.

أشكر الله كثيراً لأن هناك أشياء كبيرة وعظيمة لم أجربها أبداً، وفقدت الأمل في أن أفعل، لأنني في لحظة ما، كان على أن أفقدها وأشعر بفجوعة حقيقية، قبل سنوات كنت أكاد أجن حين أفكر في هذه الأشياء التي لن يمكنني تعويضها مهما فعلت، تلك الأشياء التي لن يشبع جوعك إليها أن تمنحها لآخرين، ولكنني مع الوقت تصالحت مع الأمر ووجدت أنني أفضل حالاً هكذا، على الأقل الوجع لم يكن مبالغاً.

أنا هادئة / صاحبة جدًا هذه الأيام يا صديقي، أتقبل الكثير من التحديات بهدوء غريب ولا أبالي فعلاً هل سأنجح أم أفشل في تخطيها؟ أختبر حدود طاقتي أكثر وأكثر ولا أعرف متى سأنفجر ومتى أكتشف أنه ليس بوسعي أن أحتمل أكثر، وأخشى أن تأتي هذه اللحظة في الوقت الخطأ.

في داخلي أنا ممتلئة بالأسئلة، هناك زحام شديد في رأسي يمنعني حتى عن الكتابة بوضوح، وأشعر بالخوف من التوقف عن الكتابة إليك، لا أريد أن يحل هذا الصمت الثقيل من جديد بيننا.

قبل أيام كنت بخير يا رفعت، كانت الرؤية واضحة لدرجة أنني أردت أن أقفز فرحاً في الثالثة فجرًا لأن الغمة انقشعت وأصبحت أرى كل شيء بوضوح، شعرت بالرضا عن نفسي، عن النسخة التي أنا عليها الآن، تصالحت مع الندوب القديمة وشعرت بالكثير من الثقة، تشجعت للمرة الأولى منذ ٢٠١٠ تقريبًا وأمسكت ورقة وقلماً ووضعت قائمة واضحة بما أريد أن أفعله في الأيام المقبلة.

فجأة كل شيء ارتبك، غطى الضباب كل شيء وجعلني أشعر بالقهر، أنا أفعل ما ينبغي كي أصل لتلك النقاط على الطريق ولكنني لا أصل أبدًا، أعرف أن خيوط اللعبة كلها ليست في يدي وأشعر بالعجز، عاد الضباب مرة أخرى ولم أعد بخير!

أشعر أن هناك الكثير من الضجيج حولي، هناك عشرات النصائح المتناثرة والمتناقضة التي يرددها أصحابها بيقين تام وكأنهم يملكون مفاتيح الغيب، كأنهم شاهدوا هذا الفيلم من قبل ويعرفون جيدًا ماذا سيحدث، أريد أن أصرخ في الجميع أن اخرجوا كي أتمكن من التفكير للحظة واحدة في هدوء، ولكن لا يمكنني أن أغمض عيني / أختبئ من هذا الضجيج.

جربت عدة أيام أن أبتعد عن ضجيج «السوشيال ميديا» ولكنني أيضًا لم أجد الراحة، لدي قلق مستمر بأن هناك شيئًا ما يحدث، وأن شيئًا ما مهمًا سيفوتني، أشعر أن الحل الوحيد ليهذا هذا الجنون أن يتوقف العالم كله لثوانٍ، أو يسير مثلاً بالتصوير البطيء فنجد ما يكفي من الوقت لنلمح التفاصيل لعلنا نفهم أي شيء، أو نجد ما يكفي من الوقت للتفكير بروية قبل أن يفوت الأوان.

أحمل طناً من المخاوف يا صديقي ولا أعرف ماذا أفعل بها؟ فتحت مراراً صندوق المحادثة مع أشخاص أعرفهم بالكاد، أوشكت أن ألقى بمخاوفي لديهم، لأنفحصها معهم دون حتى أن أنتظر حلاً، ولا نتحدث ثانية أبداً، ولكنني تراجع، أحاول الآن أن أتحدث معك، ولكنني أتعثّر، أتمنى فقط لو أن أحداً يطمئنني: كنت أحمل خوفك؛ والآن أنا بخير.

اكتشفت أنني أخشى السعادة أكثر من التعاسة، أخشى أن أملك ما يمكن أن أفقده، ربما أخشى ألا أكون جديرة بتلك الفرحة؟ أخشى أن أكتشف أن المشكلة ليست في عدم وجود أسباب الفرحة وإنما عطب في قلبي يمنعني من الاستمتاع بها؟

هل تذكر رسالتي الثانية يا رفعت عن خوفي من الحب؟ للمرة المليون أتأكد من أن لديّ هذا الخوف، أريد أن أهرب بكل ما أملك من قوة، ولكنني أعرف للأسف أنه في يوم ما يجب عليّ أن أكون ناضجة وعاقلة وأتوقف عن الهرب وأواجه خوفي هذا عن قرب.

دائماً أقف أمام الاحتمالات والاختيارات عاجزة، أنتظر ركلة من الحياة تطردني من مكاني إلى أي اتجاه، أحتاج أحياناً أن أشعر أنه لا خيار آخر أمامي، وأن الهرب ليس احتمالاً قائماً، أحتاج أحياناً، لا بل أحتاج كثيراً، إلى مأزق الـ«لا مفر» لعلّي أتخفف من خوف مسئولية قراراتي أمام نفسي.

ماذا أفعل بنفسى يا رفعت وبحياتى؟ لا أعرف! أنا أفكر أكثر من اللازم؟ هل أفعل ما حذرني منه أستاذى قديماً، أفكر أكثر من اللازم فى الاحتمالات الملتوية للأسئلة البسيطة فأضل طريقى وأتخذ خياراً خاطئاً بعيداً تماماً عن الحل السهل / الصحيح؟ لا أعرف!

هل أنا بحاجة لخطة؟ أطرح السؤال على نفسى ألف مرة كل يوم، هل أنا بحاجة لخطة أم أنا بحاجة للاندفاع قليلاً دون تفكير وحسابات معقدة أكثر من اللازم؟ هل ينبغي أن أسعى وراء ما أريد حتى أصل إليه أو على الأقل أبذل بعض المجهود تجاهه أم عليّ أن أقبل بما لديّ لأنه ما أستحقه بالفعل؟ هناك عشرات الاحتمالات. الرؤية لا تزال ضبابية أو بدأت أشك أنها واضحة ولكننى أخشى أن أفتح عيني!

قبل أيام حاولت أن أكتب هذه الرسالة ولم أفجح! كنت أسألك على لسان دنقل: «من يوقف في رأسي الطواحين؟»، هذه الأيام لا أنام جيداً رغم أنني أنام طويلاً، ولكن الأحلام مرعبة وحقيقية لدرجة مفزعة، ليست حتى من أحلام الفانتازيا المرعبة / المضحكة، ولكنها مقبضة جداً وثقيلة، هذه الأيام كلها ثقيلة تشبه تلك الكوابيس! هي من نوعية الأيام التي تشعر أنها تدهسك لا تمر بك! وأنا أفتقد الخفة.

رأسي يدور بعشرات الأفكار حتى أنني مشتتة، ولكن الفكرة التي تطاردني بالباح في هذه اللحظة ودفعني للكتابة لك هو ذلك الشعور مجدداً بالخوف من اتخاذ القرارات أو كراهية الاضطرار للاختيار.

كنت أفكر في ذلك الشعور بالراحة الذي يغمرني حين ألتقي شخصاً اتخذ واحداً من تلك الخيارات المصيرية قبلي، فأرثي له وأشكر الله لأنني ما زلت حرة، لم أتخذ خياراً بعد! أفكر أيضاً في الشعور بالحصار الذي يغمرني لمجرد التفكير في أن أكون اتخدت خياراً النهائي!

أفكر طويلاً في «فوبيا الاختيارات» التي أعانيها، ظننت لفترة السبب هو أن أحلامي التي تحققت بحذافيرها لم تكن سعيدة كقصص الأطفال، ولكنني الآن أعتقد أن السبب هو أنني أبداً لا أعثر على ما يمكنني بكل أريحية أن أعتبره The ultimate choice ومستعدة تماماً للدفاع عنه وأكون سعيدة بتحمل عواقبه وما قد يجلبه من تعاسة!

لست ساذجة، أنا لا أبحث عن الكمال بالطبع يا رفعت، ولكنني أبحث في كل الاختيارات عن نواقص يمكنني احتمالها والتعامل معها، وأبحث عن خيارات لا ينقصها جزء مهم جدًا مما أبحث عنه! لا أعرف هل تفهمني أم لا؟ ولكن الأمر أشبه بأن تشتري شوكلاتة بالمكسرات، بها جميع أنواع المكسرات ولكنك تشتريها بالذات من أجل حبة الفستق، وحين تشتريها تجد أن بها جميع أنواع المكسرات إلا الفستق! هل تفهم عن أي مقلب أتحدث؟

أنا أشعر بالخوف من اللحظة التي أقرر فيها أنني فتاة كبيرة وعاقلة وتعرف أنها لن تأخذ من الدنيا كل ما تتمناه وتقرر أن ترضى بنصف الكوب المملآن ولكن بعد أن «أشرب» المقلب أكتشف أن كل ما يروي عطشي كان في الجزء المسكوب!

بمناسبة الخوف، في الأيام الأخيرة أصبح «فيس بوك» مصدر إزعاج كبير لي! أصبحت أفرغ من خلاله ما في جعبتي وأهرب لأن كل ما أقرأه من خلاله يصيبني بالفرغ، حتى تلك النداءات «الخيرية» لأشخاص يجمعون آخرين من أجل مساعدة حالة إنسانية، أصبحت لا أرى الجانب الإيجابي وهو أن أحدًا ما رأى وأن أحدًا يهتم، وأرى فقط العوز والحاجة والعجز وأشعر بالخوف!

الصغير الذي لم يعرف بعد معنى المسارات الإجبارية للحياة، أدمى قلبي بالسؤال الذي أطرحه على نفسي خلسة مئات المرات: «مش هتقعدى معانا للعيد الصغير ليه؟» في كل مرة أغادر البلدة الصغيرة أتساءل: ماذا أفعل لأترك ورائي أمي وصغار أخي وكل هؤلاء الذين أحب من أجل الدوران في طاحونة القاهرة المجنونة؟ وأتساءل مرة أخرى: لو تركت هذه الطاحونة المجنونة هل أكون فعلاً كما يحبني الآن؟ أدرك بصدق قيمة كل لحظة أقضيها معه بعيداً عن الصخب وأدرك أن لديّ معه القليل من الوقت يجب أن أستثمر كل ثانية منه؟

أراهن في كل مرة أغادر في الصباح الباكر، قبل استيقاظهم، على ذاكرة الأطفال التي أتمنى أن تكون ضعيفة أو تزدهم على مدار سنوات العمر بالأحداث، أراهن على أنه حتماً سيكبر ويفهم؛ ولكن كل المشاهد التي تأبى أن تغادر ذاكرتي من الطفولة تواجهني بوضوح بأنني أخدع نفسي وأخدعه.

لا أعرف لماذا تضعنا الحياة في هذا المأزق دائماً إما نكون أنفسنا وعلى الصورة التي نحبها ولكننا لا نملك من الوقت ما يكفي لنرى الحياة بتلك العيون التي نحب، أو نملك الكثير من الوقت الذي لا نعرف كيف نقتله؟ والكثير من عدم الرضا والكثير من الأفكار غير الجيدة التي لا تفعل شيئاً سوى قتل ثقتنا بأنفسنا.

أخشى أننا من نضع أنفسنا في هذا المأزق دائماً لأنه ليس بإمكاننا أن نكون أنفسنا ونعيش الحياة في الوقت نفسه، أو لأننا نخاف ألا نجيد أن نعيش الحياة فعلاً فنختبئ وراء مبررات وحجج واهية ونزعم أن أشياء مهمة جداً وصارمة جداً تحول بيننا وبينها، وأنه فقط حين نقوم بكل هذه الأشياء الضرورية على أكمل وجه سنعيش الحياة على أكمل وجه.

تذكرت بالأمس هذه اللعبة القديمة: ألتقط القلم بين أصابعي وأترك كل ما في عقلي ينسكب على الورقة دون أي تفكير في ما أكتبه، ما رأيك أن نجربها معاً؟

هناك الكثير من الأفكار والفوضى في رأسي الآن، وكلها تندافع معاً للخروج فتقتل بعضها من التدافع ولا أقول أي شيء، ولكنني سأحاول. في ردٍ على رسالة من صديقة أحبها تحدثت معها عن أهمية الأحلام، أنا أحب الأحلام جداً، ليست الأحلام الكبيرة والخطط للغد، لم يعد لديّ منها، لم أعد أحب أبداً أن أضع توقعات وأنتظر شيئاً ولكنني أقصد أحلام النوم، حين أخبرت ذلك المعالج بالطاقة، دون قصدٍ، أنني أواجه صعوبات في النوم وبعض الكوابيس والأحلام الغريبة أظهر لي قلقه وأخبرني أنه الليلة سيهديني علاجاً عن بعد ويخلصني من كل تلك الطاقة السلبية التي تحاصرني، أخبرني أنني سأنام كطفلة دون أية أحلام، لم أشعر بالسعادة، أنا أحب أحلامي بكل إزعاجها وتفصيلها، أشعر أنها طريقة أخرى لأعيش حياة إضافية بشكل آمن تماماً.

في الأحلام فعلت كل ما لا أجرؤ على فعله أبداً وأنا مستيقظة، دخلت بيوتاً مظلمة غير مأهولة، تمشيت ليلاً في المقابر، صفعت كل من أشعر بالانزعاج منهم، واجهته بكل ما أغضبني ويغضبني منه، قفزت من الشرفة وهربت من عصاة قتلة لم أعرف أبداً لماذا يطاردوني.

في الأحلام واجهت أسوأ مخاوفي: سقطت من علو شاهق، جربت مرارة فقدان الأحبة، نساني أهلي خلفهم وغادروا في رحلة بعيدة، خسرت عملي، رسبت في بعض المواد الدراسية، عشت في الأحلام تدريباً عملياً على كل ما يمكن أن يسبب لي الألم والرعب، اختبرت الوجد حقيقياً وقاسياً لدرجة أنه حين يحدث كل هذا في الحقيقة أظنني لن أشعر بمثل هذا الوجد.

أما الأحلام الوردية فحدث ولا حرج، قابلت توم هانكس، كاظم الساهر، احتضنت أمني نصف ساعة كاملة، سافرت خارج البلاد، قدت سيارتي الخيالية أكثر من مرة، التقيت كل من أحببتهم واستيقظت بابتسامة عميقة راضية بأن أعيش هذا حتى لو في حلم.

بالأمس حين شاهدت ذلك الفيلم المقبض جداً شعرت بإحساس ثقيل بالكآبة حين كانت البطلة تأكل بغل طبقها الأول بعد رحيل زوجها، كان المشهد طويلاً ومملاً بما يكفي ليجعلني أفكر ماذا أفعل لو كنت مكانها؟ عرفت فوراً أنني سأهرب إلى النوم، نوم طويل أسرق خلاله لحظة إضافية أو اثنتين معه، مثلما فعلت مراراً كلما فقدت قطعة أحبها، لا أهتم كثيراً هل تكون هذه اللحظات حقيقية أم لا؟ المهم أن أهرب الآن، والمهم أن أعيشها، أن أحسها صادقة، ما هو المعيار أساساً بين ما هو «حقيقي» وما هو «حلم»؟

أحياناً أتخيل أن هذه الأحلام أيضاً جزء من حياتنا، أتخيل أن لكل منا فرصتين للعيش واحدة في اليقظة والأخرى في الأحلام، وأن هذه طريقة عادلة جداً كي يحصل كل منا على ما حرم منه ويريده بشدة، وطريقة مثالية جداً لتمكن من احتمال الحياة.

الرسالة ٤٠

هل تشعر بالانزعاج لأنني أصبحت أطرق بابك بوتيرة أسرع من قبل؟ لقد أحببت لعبة الأمس وفي الوقت نفسه أحببت أن أصل لهذا الرقم ٤٠، قبل دقائق كنت أترقب انتصاف الليل لأتمكن من العودة إلى الورا عدة أعوام وأطالع ذكرياتي في مثل هذا اليوم، لا أعرف لماذا أدمنت هذه اللعبة منذ أن ظهرت للنور على الرغم من أنني أعرف جيداً أنه لو بإمكانني ركوب آلة الزمن لن أعود أبداً للوراء.

يكره البعض أن يعودوا لمطالعة ذكرياتهم السيئة ولكنني أحب مراجعتها، أحب أن ألمس كل هذه الهشاشة التي كنت عليها وأشعر بالثقة لأن هشاشتي الآن أقل، ولأن ثقتي الآن أكبر، أحب أن أتذكر كل هذه الأشياء السيئة التي مرت، الأيام الثقيلة كالموت، واللحظات المفزعة، في الأيام الأخيرة وبينما أنا على شفا الانهيار من الضغط العصبي قررت أن ألجأ لحيلة لا أعرف هل هي صائبة أم لا لكنها تجعلني أشعر بالتحسن، أنظر لتلك المواقف المزعجة والسخيفة على مقياس حياتي بأكملها، أقول لنفسني: أنت الآن في الخمسين من العمر، هل يؤثر عليك هذا الموقف؟ هل يفسد حياتك للأبد؟ إذن لا بأس.

أشعر أن هذا الكلام سخييف يشبه ما تلقننا إياه كتب التنمية البشرية، ولكن هذه الحيلة ساعدتني كثيراً، خاصة مع كل هذا اليقين لديّ بأنني في المستقبل سأكون أفضل حالاً.

تحدثت يا رفعت أكثر من مرة في قصصك عن المؤتمرات الطبية المملة التي كنت تضطر لحضورها وتشعر أن الوقت يمر داخلها كالدهر، قبل أيام تذكرت ما قلته هذا وشعرت أنني على العكس تمامًا، أنا أحببت تلك المؤتمرات القليلة التي حضرتها، أحب فكرة أن ألتقي أشخاصًا عابرين جاءوا من أماكن مختلفة لأسباب مختلفة لأن القدر خطط لهم ذلك، يقولوا لبعضهم أشياء جميلة أو سخيفة، المهم أنها عابرة، يستمعون للحديث نفسه وكل منهم يفكر فيه بطريقة ثم تفرقهم الحياة مرة أخرى وقد لا يلتقون مجددًا أبدًا.

في الفترة الأخيرة اكتشفت أنني أحب الصدف كثيرًا، أشعر أنها أشبه بكود غش Cheat code في لعبة الحياة يغير مسارها تمامًا، يحل المعضلات المعقدة ويفتح أبوابًا لم نكن نظنها موجودة أبدًا، لذلك كلما شعرت أن الأمور أصبحت مستحيلة بشكل مزعج، ومظلمة أكثر مما ينبغي أفكر في صدفة سحرية بإمكانها أن تصلح كل شيء.

وأنا أدون عنوان الرسالة ورقمها تساءلت كيف سأكون بعد عامي الأربعين؟ أخبرتك من قبل أنني أشعر بالتفاؤل وأنا حين أصل لهذه السن سأكون أكثر استقرارًا وتوازنًا، أتخيل أنني سأهجر الصحافة ربما أتفرغ لكتابة الروايات أو العمل المستقل في مجال ما، ربما أتعلم غزل التريكو أو الحياكة، أنا أحب أن أصنع أشياء بيدي ولكن ينقصني الصبر الذي أظن أنني سأملك الكثير منه بعد سنوات، كل ما أرجوه يا رفعت ألا أصل للأربعين وأنا أحمل كل هذا القلق داخلي.

حين أصل للأربعين أتمنى أن يكون لي البيت الخاص بي، شقة «استوديو دوبليكس» إن أمكن، تطل على القليل من اللون الأخضر وتقع في حي هادئ، لن يخلو البيت من قطعة بالطبع، وستكون لديّ مكتبة كبيرة وكروسي مريح في غرفة المعيشة منقوش بالورد، ربما تكون لديّ سيارة وربما لا أجد لها داعيًا لأنني لن أغادر البيت كثيرًا.

أشعر أحيانًا بالخوف على هذه الأحلام الصغيرة داخلي، أتذكر آخرين شاخوا وأوشكوا على مفارقة الحياة ولم ينسوا أبدًا تلك الأحلام الصغيرة التي تحمسوا لها طويلاً في العقد الثاني، وعملوا لأجلها حتى تخطوا العقد الخامس وحين أصبح بإمكانهم تحقيقها كانت روحهم شاخت للدرجة التي جعلتهم يرونها أحلامًا تافهة وأن هناك ما هو أهم فتحلوا عنها وتصنعوا التعقل لبيدوا كالكبار الناضجين ولكنهم لم ينسوها أبدًا، كنتك اللعبة التي لم تحصل عليها أبدًا في طفولتك وأسعرت لشرائها بعد

أن أصبحت شخصًا بالغًا وقبضت راتبك الأول، ولكن حتى إن اشتريت عشرة منها لا يفلح هذا في إشباع الطفل داخلك.

من المزعج جدًا يا صديقي أن شعورنا بالرضا والإشباع له شروط شديدة الدقة والصعوبة، الأمر أشبه بهذه اللعبة على «فيس بوك» لصورة متحركة يجب أن تضغط عليها في الوقت المناسب كي يقف الجزء المتحرك على المكان الشاغر فتكتمل الصورة، لا يكفي أن يأتيك ما تريد فقط وإنما يجب أن يأتي في الوقت الذي تريده فيه بشدة، ولتلك الطبعة من شخصيتك إن جاز التعبير.

حكى أحدهم عن قصة مشاهد في فيلم رعب: شخص ما يشعر بثقل فوق كتفيه ومشكلة بدت له صحية، حار الأطباء في معرفة السبب واكتشف حين استخدم كاميرا ممسوسة أن شبح امرأة ظلمها يجثم على كتفيه.

أنا أعرف هذا الشعور جيدًا يا رفعت، أحمل كل أيامي على كتفي مثل هذا الشبح، كل المهام والأمنيات المؤجلة، الكتب على رف «اللقراءة»، مسودات الأفكار، كل الوعود التي لم أتمكن من الوفاء بها، كل ما نسيته ولكنني لم أنس أنني أحمل مسئوليته، كل من خذلتهم وحتى كل من خذلوني أحملهم هكذا فوق كتفي حتى وأنا نائمة!

حين أكون وحدي، أحاول أن ألتقط أنفاسي أحيانًا، ألتف على نفسي وأتجاهل كل ما يحدث في العالم، وأفكر فقط في أن هذه اللحظات الثمينة لنفسني مع نفسي لن تتكرر بسهولة؛ ولكن حين أكون بين الآخرين يا رفعت لا يمكنني أبدًا أن أنزل هذا الشبح من على كتفي.

حكيت لك من قبل عن شعوري بأن كل إنسان يشبه البازل يعطي صورة مختلفة حين يلتحم بأشخاص مختلفين، اكتشفت أيضًا أن هذا يحدث مع الأماكن، نحمل في كل مكان صورة مختلفة، لا يشترط أن تكون ظاهرة للآخرين ولكنها كثيرًا ما تكون واضحة بيننا وبين أنفسنا، كأن كل مكان هو امرأة مسحورة في «بيت ملاهي»، واحدة تجعلك تبدو أضخم وأخرى تجعلك طويلًا، واحدة تجعلك مضحكًا وثانية تجعلك مرعبًا، وهكذا، وبين كل هذه الصور المتباينة لمرايا كاذبة تضيع ملامحنا الحقيقية،

ونتساءل في لحظات: هل للحقيقة وجود أصلاً؟ تخيل لو أنك في حفل
تنكري وخلع الحضور أقنعتهم المربعة لتكتشف أنه لا يوجد ورائها وجه
من الأساس سيكون هذا مربعاً أكثر من الأقنعة نفسها!

فعلت كل ما يلزم يا رفعت، كي لا أكون بطلة لواحد من أفلام الرعب التي ألعن حماقة أبطالها وسذاجتهم وتهورهم، لم أدخل أبدًا مناطق مظلمة وحدي، لم أطرق أبوابًا مواربة مشبوهة، رغم كل ما تقدمه من إغراء لفضول القطة داخلي، لم أبعد كثيرًا عن البيت، ولم أتمسك بدمية مربية - الحقيقة لم أتمسك بأي شيء على الإطلاق - ولم اختر أبدًا الطريق الموحشة، ورغم ذلك وجدت نفسي في متاهة طويلة لعينة لا أملك أدنى فكرة عن كيفية الخروج منها.

اكتشفت أن هذه الحياة اليومية العادية أكثر رعبًا من كل تلك الأفلام! وهل تعرف ما هو الأسوأ؟ أنه بعد انتهاء هذه الحياة لن يستقبلني العالم كبطلة تمكنت أخيرًا من النجاة، ولن تهرع سيارات الإسعاف للتحقق من سلامتي ولن يحتضنني أحد أو يربت عليّ وهو يخبرني بتعاطف أن الأمر كان صعبًا ولكنني فعلتها وأنه فخور بي لأجل ذلك!

تحولت تلك العبارة عن أن أحدهم يخوض حربًا لا تعلم عنها شيئًا إلى مزحة، ولكنها حقيقة لدرجة تدفعني للبكاء، أنا أخوض معركة حتى أثناء نومي كي أتمكن من الحصول على الشيء الذي أعتبره الأفضل في حياتي «نومًا هائلاً دون ذلك الشعور القاتل بعدم الراحة، والذي تبدو الكوابيس أليفة مقارنة به»، ثم أخوض معركة أخرى لأنهي نومي وأغادر سريري وأواصل الحياة التي - صدق أو لا تصدق - اخترتها!

أجرب كل الأشياء التي اعتدت أنها تبهجنني ولكنها لم تعد مجدية، أدرك أنني أفرطت في استخدامها، في الاعتماد عليها وحدها، لأتمكن من مواصلة الحياة والآن أنا معطوبة كجسد تشبع من المسكنات ويعرف أنه مضطر الآن لمواجهة الألم، إلى الأبد لأن أي شيء آخر في العالم لم يعد مجدياً.

كلامي يبدو يائساً ومخيفاً على عكس ما أبدو عليه في المعتاد، على عكس ما سأبدو عليه بعد ساعات حين أنهض من نومي وأتحرك بنشاط لأبدأ يوماً آخر لأن الحياة تستمر، ولكن كل هذا اليأس يتسرب من بقعة مظلمة عميقة في داخلي، أشعر أنه يشبه مخلفات حرب اندست عميقاً داخلي حتى نسيته، بل ونسيت الحرب ذاتها، ولكنها تنفجر فجأة بمجرد أن تحدث حركة واحدة في المكان الخطأ، المشكلة هنا أنني لا أعرف أي حرب خلفت هذه الألغام، ولا ماذا تحرك أو ما هو الخطأ، كل ما أعرفه أن الانفجار مدوٍ والأشلاء كثيرة، وأنا متعبة كأنني أتهاوى من داخلي.

اكتشفت فجأة أن تلك الفتاة ذات الضحكة البلهاء في لعبة المطبخ تشبهني كثيراً، تلهث طوال الوقت لتنفيذ ما يطلب منها بأقصى سرعة ممكنة، تخاف ظهور علامات السخط على ملامح من ينتظرون تلبية طلباتهم بنفاد صبر وكأن أحدهم لا يرى الآخر ولا يرى في الطابور الطويل إلا نفسه، هم يعاملون أنفسهم كما يرون أنهم يستحقون ولا يمكن أن نلومهم ولكن لماذا نفعل نحن هذا بأنفسنا؟

أتصرف مثلها تماماً، أو في الحقيقة أجعلها تتصرف مثلي، تضع خطة وتحاول أن تبدأ العمل مبكراً، تحضر لطلبات البعض قبل حتى أن يطلبوها، ولكن هذا لا يغفر بالطبع أن يتعطل الطلب الأخير قليلاً، ما قدمناه انتهى والعبرة بالخواتيم.

أعرف أن اللعبة تضغط على أعصابي المنهكة أصلاً ولكنني أواصل لعبها كطريقة أخرى لتعذيب النفس ربما أو لاختبار حدودي كما اعتدت، أو ربما لأنها تمنحني القدرة على الهرب حين تضطرب الأمور وأشعر أنني لن أحقق نتيجة مثالية، فأهد كل شيء وأبدأ من جديد.

صديقتي أرسلت لي مقالاً عن «الموت المهني»، ووجدت أن الأشخاص الأكثر قابلية للوقوع في فخ هذه المتلازمة هم الباحثون دائماً عن الكمال، حسناً يبدو أن هذه اللعنة ستطاردني طوال حياتي، حتى في علاقتي بالآخرين، حين أشعر أنني لست جيدة بما يكفي، أنسحب تماماً وكأن تقييمًا بانتظاري في مرحلة ما ولا يمكن أن تكون درجتي فيه سيئة،

أو ربما أنسحب كخطوة استباقية، أعرف أنني لست جيدة، أعرف أنك لست مضطرًا لاحتمالي، سأنسحب قبل أن تفعلها أنت.

كم فرصة أضيعها لأنني أخاف ألا أكون جيدة بما يكفي؟ أرجع بذاكرتي فأكتشف أن كل خطوة تقدمتها للأمام في بدايات حياتي كانت لأنني لم أفكر أبدًا هل أنا جيدة أم لا؟ هل هي خطوة صحيحة أم لا؟ لا أعرف ماذا حدث لي فأصبحت ما أنا عليه الآن، أتجمد قبل كل خطوة وكأنني أتحرك في حقل ألغام لو وطأت البقعة الخاطئة ستنتهي حياتي.

مرعبة جدًا تلك المسافة التي نقطعها بعيدًا عن أنفسنا ونحن نظن أننا قريبون، كل تلك التواءات داخلنا التي تشبك بخيوط رفيعة جدًا في حياتنا دون أن ننتبه وفي لحظة ما نكتشف أنها تسببت في عقدة كبيرة تعرقل انسياب الخيط.

اليوم أتعامل مع الضجيج في رأسي بشكل مختلف، في أوقاتٍ سابقة كنت أنزعج حين تمر الكثير من الأفكار ببالي ولا أجد وقتًا أو طاقة للكلام عنها أو كتابتها، كنت أشعر أن كل ما لم أقله في حينه يتحول إلى رماد كثيف على قلبي ويعيق كثيرًا محاولاتي للتقاط نفس عميق.

اليوم ضبطت نفسي، أفكر في الأمر بطريقة أخرى، شعرت أنني أطمئن لوجود هذا الضجيج داخلي، على الأقل لست خاوية كبعض أيام كنت فيها شاحبة كمغلف شاي مستخدم فقد كل ما يحمله من مذاق في كوب ساخن، شعرت اليوم أنني أربت على كل هذا الحديث الدائر في عقلي، وأقول لنفسي: «حسنًا على الأقل ستجدي ما تقولينه حين تتاح لك الفرصة».

اليوم أيضًا كنت أفكر في أن الدنيا تلعب معي تلك اللعبة القاسية، تشد الخيط بيني وبين ما أحلم به لدرجة مؤلمة، فأجري وراءها محاولة أن أجعل المسافة أقرب كي لا يؤلمني أكثر ولا ينقطع، وهكذا أظل ألهث وراءه حتى تلك اللحظة التي أشعر أنه لم يعد بوسعي أن أحتمل أكثر، ولا أبالي لو أن الخيط انقطع، فتفاجئني بأن ترخي، لتستمر اللعبة لا أكثر.

شعرت للحظات أنها مخادعة جدًا وتفعل تمامًا كما يفعل أولئك الذين يتلاعبون بحدود كراهيتنا ويؤرجحوننا بين الحنان والقسوة لدرجة موجعة تجعلك عاجزًا عن اتخاذ موقف واضح بشأنهم، فلا أنت هانئ بقريهم ولا أنت فاقد الأمل كليًا في حنانهم.

ولكنني، ولأن مزاجي جيد جدًا اليوم، نظرت للأمر بطريقة مختلفة، تذكرت الآية القرآنية التي تطمئنني وأحبها «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» الله يعلم أنه لم يكن بوسعي أن أحتمل أكثر وأنني على حافة انهيار، فلم يكلفني أكثر.

كثيرًا ما أردد هذه الآية وأطمئن، فهي تذكرني أن كل ما أمر به يعلم الله أن بوسعي تخطيه وتجاوزه؛ ولكنني أحيانًا أخاف من مدى قدرتي على التحمل، تمر ببالي ابتلاءات بعينها لا أريد أن أختبرها أبدًا، وأردد لنفسِي: «لن أحتمل هذا أبدًا.. لن يمكنني أن أنجو»، وكأنني أطمئن نفسي أن هذا لن يحدث أبدًا طالما أنا مؤمنة أنني أضعف من أن أحتمله.

أشعر أنني أحاول أن أسبب أقل إزعاج ممكن لهذا العالم، وكأنني أخشى دائماً أن أطرد منه لسوء أدبي، أضغط على نفسي دائماً وأهمس لها: «أنتِ الكبيرة» وأحاول أن أستوعب سبب غضب هذا وعدم لطف ذاك ووقاحة الثالث والأذى غير المبرر من الرابعة وبالكاد أجد من يستوعبني في تلك الأيام حين لا أقوى حتى على الابتسام.

أشعر بالذنب دائماً حين يكون أحد في محيطي غاضباً، وكأن هذه مشكلتي وعليّ أن أتصرف وأحلها فوراً حتى لو كان هذا الشخص الغاضب هو سائق الميكروباس الذي اكتشف أن أحدهم لم يسدد أجرته، فأشعر بالذنب والحرج وكأنني هذا المتهرب اللئيم.

راقبت نفسي في الفترة الأخيرة أيضاً واكتشفت أنني أعتذر للكثيرين عن أشياء لست مسئولة من الأساس عنها، أعتذر حتى لمن يجب عليهم أن يعتذروا لي وهذا ليس جيداً.

أخبر نفسي أنني الكبيرة ولكنني أشعر بداخلي أنني ما زلت طفلة صغيرة جداً أودعها أبواها لدى الجيران وطالبها بأن تكون مهذبة جداً لأنها مهما طالّت إقامتها ليست إلا ضيفة!

وأنا أتصفح «فيس بوك» كتب أحدهم عن مدرب في ورشة ما أخبر الحضور في بداية الجلسة أنه ليس عليهم أن يكونوا لطفاء، قبل أن أعرف السبب والحكمة في تلك التدوينة، اضطررت لمغادرة الميكروباس الذي كنت أركبه وضاعت مني القصة ولكنني انشغلت بالتفكير فيها: لو أن

أحدهم أخبرني أنه بإمكانني ألا أكون لطيفة مع الآخرين هل أفعل ذلك؟ هل أخبر من يزعجونني بوضوح أنهم ضايقوني وأصارع المحيطين بي بعيوبهم؟ هل أخبر ثقيلي الظل بأن أحاديثهم سخيفة وأمتنع عن رسم تلك الضحكة القصيرة المجاملة؟ اعترفت لنفسي بوضوح أنني لن أفعل هذا أبدًا لا أملك هذه القوة على تحمل انكسار أحد أمامي ولو حتى بشكل سطحي وعابر، وهذا فعلاً ليس جيداً لأن هناك من يستحقون ذلك ليفيقوا ولأنني نفسي أستحق أن أشعر بأن سلامتي النفسية ومشاعري لها الأولوية على أي شيء آخر.

كنت أفكر كذلك في ذلك الكتاب الذي أخبرتنا عنه المدرسة الألمانية Nice Girls Don't Get the Corner Office وفكرت أن الأمر لا يقتصر على العمل فحسب وإنما ينسحب على العلاقات أيضاً، فحين تكون الشخص الطيب الذي يستوعب الجميع ولا يدقق في التفاصيل الصغيرة ولا يطلب اعتذاراً عن كل ما يزعجه وحين يشعرون أنك ذو عقل كبير وتقدر دائماً كل الظروف والحالات، لا تكون أولوية أبداً عند الآخرين. سيحبونك لأنك تريحهم ولكن في كل مرة يكون أمامهم الاختيار بينك وبين أي شخص آخر على قائمة اهتماماتهم لن تكون أبداً على رأس القائمة حتى لو كانوا لا يحبون هذا الآخر.

«إحنا هنستخدم معالق الشورية ونحفر نفق بره البلد.. ونهرب»،
تخترق العبارة من فيلم الكارتون أذني، لم أضحك كالعادة لأنني اكتشفت
أن هذا ما أفعله يوميًا بشكل ما دون التفكير في جدوى المحاولة، ولا متى
أنتهي من حفر هذا النفق؛ إنما أستمّر في الحفر لأن هذا ما يمنحني الطاقة
لأعيش يومًا آخر وأنا أكرر لنفسني: «الوضع مؤقت.. كل هذا سيمر»، أحيانًا
يملأني اليقين بذلك، وأحيانًا أتخيل نفسي بعد ٥٠ عامًا في الوضع نفسه،
أو وضع مشابه أو حتى أكثر سوءًا، أكرر العبارة نفسها و«ألصم» نفسي
لأعيش يومًا آخر.

أفكر كثيرًا في الفرق بين التروي والمماطلة، القدرة على التحمل
والجبن، وعشرات المعاني التي تختلط في ذهني فلا أعرف هل ما
أظنه حكمة وتعقل ونضج هو مجرد خوف من المغامرة والإقدام على
المجهول؟

يوصم الهرب دائمًا بأنه أحد أشكال الجبن وعدم القدرة على
المواجهة أو فرار من تحمل المسؤولية، ولكن ألا يحتاج الهرب شجاعة
كبيرة أيضًا؟ شجاعة التخلي عن كل هذه الأشياء التي احتملنا لأجلها حتى
هذه اللحظة، وشجاعة في الإقدام على المجهول وجرعة ثالثة من الشجاعة
للبدء من جديد ونحن محملون بكل هذه الخيبة.

الهرب دائماً مقاومة على المجهول، اختيار محفوف بالمخاطر وأحياناً أراه واحداً من أوضح أشكال الرفض للواقع والتمرد عليه، وهو بشكل ما نوع من المواجهة، وربما لهذا يوصمونه دائماً بالخسة، كخدعة! منذ طفولتي لا يمكنني الهروب إلا بالنوم، حين أشعر بالضيق ألجأ لفراشي وأتخيل أن الغطاء فوقني يتحول إلى خيمة سحرية تنقلني لعالم آخر، وأحياناً يتحول إلى مركبة فضاء، ومن هناك يمكنني أن أعيش العالم الذي أريده في الأحلام، وكلما استيقظت من النوم أجبرت نفسي على النوم مرة أخرى لأواصل الهرب.

أما في الأحلام فلم أتمكن من الهرب بنجاح أبداً في أحدها، كلما كنت في ورطة / كابوس، أركض وألهث طوال الوقت في محاولة للبحث عن مخرج أو الإفلات من عصابة القتلة التي تطاردني، كنت أنجح في الاختباء أحياناً ولكنني لم أنجح ولو مرة واحدة في الهرب، أظل دائماً عالقة في ورطتي لا أرى مهرباً إلا في شكل خطة لا تدخل حيز التنفيذ أبداً. والآن يا رفعت أنا عالقة في رأسي وأفكاري، «مطاردة من عصابة كاملة اسمها أنا» كما تقول «غادة خليفة»، ولا يمكنني الاختباء وليس لدي حتى خطة!

أشعر أنني قطعة فاشلة جداً في السباحة.

لا مذاق لي، كل تلك الخيارات التي يرسمون من خلالها صورتني، حتى التي أخذتها بنفسني، لا تشبهني، هي أشبه بالحدود التي وضعوها لي وعودت نفسي أن ألتزم بها لأنني منهكة جدًا، ولا أريد أن أخوض معركة أخرى، يمكنني أن أعيش دون حسمها، وأركز طاقتي لمعارك أخرى أكثر أهمية.

أنظر في عيونهم، أعرف أن تلك التي يرونها ليست أنا، أشعر بالخيبة أحيانًا أتمنى لو أفتح عيونهم على وسعها وأجبرهم على رؤيتي، وأحيانًا أكتفي بثقب نافذة إلى قلبي كي يروا وجهًا لا يلمحونه دون مساعدتي.

أحيانًا أشعر بالسخط، ألعنهم لأنهم لا يبذلون جهدًا كافيًا لرؤيتي كما أنا، على حقيقتي، ثم أخبر نفسي بأنني في موضعهم لن أبذل ذلك الجهد الذي أنتظر أن يبذلوه لأجلي، أنا في النهاية شخص غير مثير للاهتمام للوهلة الأولى.

وأحيانًا أخرى لا أبالي، أنظر للصورة الوهمية في عيونهم وأسأيرهم وأنا أضحك لنفسني من حماقتهم، ولكنني، أعترف، أحيانًا أخاف أن يكونوا هم على حق، وأنا الحمقاء التي لا تعرف نفسها.

أتأمل حساب ذلك الزميل على «إنستجرام» يبدو وسيماً واثقاً في الصور، ابتسامته لا بأس بها، مسماه الوظيفي يبدو جيدًا، يؤمن بأنه يجيد عمله وكثيرًا ما يتحدث عن ذلك، حتى أمامنا نحن الذين نعرف الحقيقة

كاملة، أتساءل هل يعرف الآخرون، الذين لا يرون منه إلا الصورة، أن رائحته مزعجة وأن قدراته محدودة وأنه لا يحظى باحترامنا؟

الوسيم الآخر الذي يعرف أنه وسيم ويتعامل مع أي فتاة باعتبارها واحدة من معجباته، هل تعرف الفتيات اللاتي يتساءلن بحسرة عن سر عزوبيته إلى الآن أن عقل الطفل أكثر نضجاً منه وأنه مغرم بالخلافات الصغيرة والمشاكل التافهة وأن أي كلمة تعبر أذنيه لابد وأن وراءها مؤامرة؟ أشعر بالرعب وأنا أفكر في هذه المفارقات، في المسافات التي تجعل الصور مخادعة أحياناً وأكثر وضوحاً في أحيانٍ أخرى، والقرب الذي يخفي عنا الكثير من التفاصيل، والزاوية التي ننظر منها والتي توهمنا أحياناً بأن المشهد بانورامي أمامنا في حين أنها في النهاية مجرد زاوية للرؤية لا أكثر.

في طفولتي كنت أصدق بانبهار ما يقوله الآخرون عن أنفسهم، أشعر في الوقت نفسه بالضآلة لأنني لا أملك يقيناً مشابهاً تجاه نفسي، حين كبرت وأصبحت أميز الفرق بين ما يقولونه والحقيقة أصبحت أشعر بالخوف من أن أملك مثل هذه الثقة التي تجعلني أبدو حمقاء في عيون الآخرين، الذين يرون الحقيقة التي لا يمكنني رؤيتها، كل ما أقوله عن نفسي، لا عن مشاعري، أحرص أن يكون مصحوباً بـ «ربما» و«أعتقد» أو «هكذا أرى» لأمنح نفسي خطأً أخيراً للرجعة «على الأقل لم تكن أكيدة تماماً».

قلبي ممتلئ بالكتابة وتعلمت من شهور الجذب الطويلة أن أطيعها فوراً وإلا تخاصمني أكثر مما يمكنني أن أحتمل، «فيس بوك» يذكرني منذ أيام بأن «سترة النجاة تحت مقعدي» بينما أفكر لماذا في كل مرة أنتظر تلك الركلة التي تطردني بعيداً عن الجحيم ولا أبادر أنا بالمغادرة في الوقت المناسب، لماذا أفضل دائماً أن أستنفد كل الفرص؟

أتذكر كلمة قديمة قالها شخص ألغته لأجلها حتى الآن: «أنا دائماً رد فعل، عمري ما ببادر بإنهاء أي حاجة»، أعرف أن هذه المماطلة سخيّة جداً ومزعجة ولكنني رغم كل شيء لا أتمكن من مقاومتها، يطاردني شبح الكلمة إلى حد التهور أحياناً في المبادرة بتصرفات تجعل صديقتي تعتبرني هوجاء مندفعة، ولكنني أتقبل كل شيء في سبيل ألا أكون أمام نفسي بهذه السلبية. في المقابل، أجنأ أمام القرارات الكبيرة وأنتظر دائماً الركلة إياها.

لماذا لا يمكنني التلاشي دون أن أموت؟ أتحوّل إلى رماد لبعض الوقت، أو أستعير حيلة لعبة الطفولة أردد «كهرياء» وأتجمد مكاني لا أتحرّك ولا يمكن لأحد لمسي حتى أقرر بنفسي في اللحظة المناسبة أن «أفك الكبس»!

دائمًا تنفذ بطاريتي في الوقت غير المناسب يا صديقي؛ أتوقف عن الجري قبل ستيمر واحد من خط النهاية وأشعر أنني اكتفيت، بالأمس كنت أتحدث مع صديق عن هذا الخوف، فزاعتي طوال الوقت هي تلك الصورة للشخص الذي توقف عن نبش الحائط وأصابه التعب والإحباط واليأس بينما كان يفصله عن الكنز ستيمر واحد فقط، دائمًا أفكر في هذا الستيمر هل هو القادم؟ أم الذي يليه؟ أم الذي يلي ما يليه؟ قطعت عشرات الأمتار أملًا في أن يكون كل ما يفصلني عما أريده هو «مجرد ستيمر آخر».

بعد هذه المرحلة تجد فجأة أنك انتظرت أكثر من اللازم، انتظرت وقتًا أطول من أن تضعه بسهولة في لحظة يأس فتقرر أن تبذل المزيد من الوقت لأنه «فات الكثير وما بقي إلا القليل» و«مش معقولة نضيع كل الصبر ده على الآخر».

ننسى أحيانًا أننا ينبغي أن نتوقف الآن لننقذ هذا «القليل» من الضياع على سراب، أو نتوقف لأننا قد نصل لما نريد ولكننا نخسر روحنا، أو حتى لأن ما نريده ليس أعظم من الثمن الذي ينبغي علينا سداده لنحصل عليه.

الآن أراجع كل هذه السيناريوهات ولا يمكنني التحرك خطوة نحو أحدهم وكأنني فقدت السيطرة على تلك التي تحمل اسمي وجسدي وتعيش حياتي، أكتفي فقط بمشاهدتها وتوجيه اللوم لها ومعرفة مواضع أخطائها وما كان ينبغي عليها أن تفعله دون أن أتدخل أبداً لإنقاذها، وكأن ما يحدث الآن هو تلك اللحظات بعد الموت التي يصورونها في الأفلام، الروح تراقب الجسد عاجزة تماماً عن تحريكه قيد أنملة.

الرسالة ٥١

لماذا نقيس الحب دائماً بالمجهود المبذول لإثباته ولا نقدره أبداً بالراحة التي نشعر بها في وجود الآخر؟ هل تعرف الراحة التي أقصدها؟ أظنها تشبه ما تشعر به قطعة بازل حائرة استقرت في موضعها الصحيح أخيراً بعد عشرات المحاولات لحشرها في غير مكانها، تلك الراحة التي تجعلنا أكثر ثقة، تجعل ابتسامتنا رائعة وروحنا أخف، تلك الراحة بأن نشعر أننا في المكان الصحيح والوقت الصحيح تماماً وكل ما هو خارج هذه البقعة وهذه اللحظة لا يهم.

حين قالت الفتاة ذات الشعر الأزرق في الفيلم «العديد من الرجال يظنونني أكملهم، أو أنني سأجعلهم أحياء، ولكنني فقط فتاة مدمرة، أنا فتاة تعيسة تبحث عن راحة بالها» وددت لو اخترق الشاشة لأحتضنها، هذا ما أتحدث عنه بالضبط. هذا ذاته ما قاله أمل دنقل يوماً: «أريد علاقة أكون فيها كما لو كنت جالساً مع نفسي في غرفة مغلقة».

لا أتخيل أنني بعد يوم صاخب سواء قضيت في العمل أو في مواجهة الحياة اليومية، سأبحث عما هو أكثر من راحة بالي، ذلك الشعور بالسكون والراحة وتوقف ضجيج الرأس والأسئلة المزعجة، لا أريد أن أحتاج يوماً لمجموعة دعم نسائية تحلل لي كلمات «الآخر» وتصرفاته وتلقني الردود الصائبة لتبادل قصص الجبهات ببراعة محترف التنس، لا أريد أن أحتفظ داخلي بصفحات مطوية لأنني أخاف أن أفقد جاذبيتي لو أصبحت كتاباً مفتوحاً، لا أريد المزيد من الحيرة والقلق يا رفعت لأنني اكتفيت.

لماذا يكون شيء بسيط كعدم الحاجة لخطة أمراً بهذه الصعوبة يا صديقي؟ لا أعرف متى أصبحت الدنيا معقدة لهذه الدرجة؟

«عن إحساس الإكسبلورر وأنت بتفتحه عشان تحمل جوجل كروم»،
نشرت هذه العبارة العام الماضي كمزحة، ولكنها الآن تشبه إبرة تنكئ
جرحًا قاسيًا جدًا.

كلنا نرتكب هذه الجريمة بحق أحدهم وكلنا ضحاياها من آخرين،
وهؤلاء الذين يؤلمهم أكثر من اللازم كونهم غير مرئيين يحاولون أن يثبتوا
وجودهم في هذا العالم بأي طريقة، لكل منا طريقته التي يصرخ بها لعل
أحدهم يراه، بعضهم يصرخ بالقسوة والآخر بمحاولات إرضاء الجميع
وثالث بالحرص دائمًا على أن يثبت لك في كل لحظة أنه يفهم أكثر وأنتك
أحمق، وفي النهاية يصبح لدينا هذا العالم القاسي المليء بالمساكين
شديدي الفظاظه والقسوة والهشاشة أيضًا، وأنا دائمًا ما أثار جح بين
الشعورين، بين الذعر لأنني غير مرئية والرغبة المستمرة في أن أختبئ.

ولكن ما يؤلمني أكثر منهما ألا يراني أحدهم أبدًا ويعتقد أنه يفعل،
ويظل قبولي مرهونًا بألا أخرج أبدًا عن إطار تلك الصورة التي لم أضع فيها
خطأ واحدًا.

قليل لي إن أعظم درجات الحب التي يمكن أن يحملها أحدهم لك
هو أن يقبلك كما أنت، وهذه في الواقع أقصى درجات الأمان التي يرتكب
الكثيرون أطنانًا من الحماقات بحثًا عنها.

تقول الصديقة التي أثق برجاحة عقلها أن هذا الشعور الصارخ بأن
الحياة ليست على ما يرام وأنها أكثر تعقيدًا مما ينبغي، يرجع إلى لهائنا

وراء الكمال والرغبة المحمومة في السيطرة، أتفق معها وأنا أراجع ما يحكونه لي عن الحياة قديمًا، كانت عبارة عن سلسلة من الأخطاء الفادحة التي لا يقابلها إلا القليل من العقد البسيطة، أقارن ذلك بعشرات المقالات التي ترتطم بها عيني عن العلاقات الصحية والتربية الصحيحة وأصولها وضرورة التدقيق في كل تصرف يصدر عن طفلنا وكل تصرف آخر يصدر عنا تجاهه، ضرورة تحميل كل لحظة بالرسائل والتدقيق في الرسائل التي يتضمنها كلام الطفل وتصرفاته وشعوري بالانزعاج من هذه الحياة البلاستيكية التي يفترض أن نعيشها حتى مع أطفالنا أملًا في الكمال المنشود في التربية، ورعبًا من كل التشوّهات النفسية بداخلنا التي يردها علماء النفس لأيام الطفولة.

أفتنع بوجهة النظر هذه ولكنني حين أفكر في أن عشرات المشاكل والعقد الضخمة كان يمكن تفاديها بتصرف صحيح واحد قديمًا أشعر بالقلق: هل حقًا لا نملك إلا خيارين؟ إما تلك الحياة البلاستيكية التي تشبه المشي في حقل الغام أو أن نفاجأ ذات يوم بأننا على حافة الهاوية لأننا لم ننتبه في الوقت المناسب لكل تلك الانحرافات الصغيرة عن المسار وفضلنا أن نستمتع بالحياة كما هي؟

قبل أسابيع قال بائع العطور إنه يتذكرني لأن العطر الذي أطلبه مميز جداً، لم تكذب ابسامتي الخافتة تكتمل حتى أضاف أن السبب هو أنه عتيق جداً فلا يعرفه إلا القليلون، لست متأكدة هل يتذكرني فعلاً أم أنه يقول ذلك لمجاملتي، ولا أعرف فعلاً هل يهمني كثيراً أن يتذكرني؟ لكنه كان صادقاً في أن غالبية من يشترونه يفعلون ذلك لارتباطه بذكريات معهم.

ورثت حب هذا العطر من أمي، ما زلت أذكر بقاياها في الزجاجاة الأخيرة التي ابتاعتها من العراق، ظلت محتفظة بها حتى حين تلاشت قطراته تماماً ولم يتبق منه إلا رائحة خافتة كذكرى البلاد البعيدة.

لا أعرف متى تخلت أمي عن الزجاجاة القديمة، لم أتمكن في طفولتي من التقاط الاسم ولكن شكلها ظل محفوراً في ذاكرتي، حاولت لسنوات أن استكشف مذاقي الخاص في العطور ولكنني لم أجد أبداً ما يناسبني، هذا سكري أكثر من اللازم وذلك يفسد مزاجي وهذا صارخ أكثر من اللازم وهذا يذكرني بفتاة أكرهها، حتى صديقتي عاشقة العطور التي يمكنها أن ترى في كل شخص عطراً يشبهه لم تجد عطراً يشبهني، ظلت حائرة حتى قادتني الصدفة إلى ذلك الذي يشبه مذاق البلاد البعيدة، اشترته أختي مرة وتحمسْتُ فور رؤية العبوة، لا يزال يحمل نفس الشكل القديم بعد أكثر من عشرين عاماً، أحببته للمرة الأولى وفاء للحظات صفاء أمي ولكنني اكتشفت فيما بعد أنه يشبهني كثيراً ويحمل ذلك المزيج من التناقضات التي تجعلك عاجزاً عن تصنيفه.

بمناسبة التصنيفات، قادتني المصادفة لتلك الفلكية التي تقول إنها عليمة، وقفت أمامها لتستكشفني: خمني لأي برج أنتمي؟ لا أعرف هل كانت الإجابة صعبة فعلاً أم أنها تكاسلت عن بذل المجهود، لكنها اندهشت بصدق حين كشفت لها تاريخ ميلادي، سألتني عن التاريخ كاملاً فتراجعت حيرتها وفسرت: رقم ٨ يمنحك الرصانة، هذا يفسر هدوءك على عكس أبناء برجك، أفكر من وقتها يا رفعت في كل التناقضات التي أجمعها، في مدى صعوبة فهمي بينما أظن دائماً أنني واضحة تماماً وأكاد أبكي كالأطفال: لماذا لا تفهمني أيها العالم؟ ولا أعرف كيف يمكنني أن أحل سوء تفاهم بحجم عالمي؟

تقول صديقتي لا يعرفونك يا سارة لأنك تخبئين نفسك، أعرف أنها محقة ولكنني لا أستسيغ فكرة أن أتجول كبائع الفريسكا على الشاطئ مستعرضة آرائي وأفكاري وأحلامي وكل ما في جعبتي أمام الجميع، أقول لنفسي: لا يعرفون سارة لأنك لا تعرفينها ثم يراودني ذلك الهاجس من جديد: بل يعرفون سارة ولا تعرفينها، فأموت رعباً.

كل صباح أتفقد النبتة الصغيرة في الشرفة، اطمئن أنها بخير، أمنحها بعض الاهتمام لأشعر بالرضا عن نفسي، ثم أبدأ يومي المليء بالمهام غير المكتملة والشعور بعدم الإنجاز.

أتأمل في قصتي مع النبتة كثيرًا، كانت مجرد حبة طماطم تالفة، كعشرات غيرها لا أعرف يتلفها شعوري بالاستهلاك / كسلي عن إعداد الطعام، أم أتلّفها من البدء الطموح الزائف الذي أغراني بشرائها لأنني توهمت أنه بعد هذا اليوم الطويل سأتمكن من الوقوف عدة ساعات أو حتى دقائق في المطبخ للطهي.

المهم أن هذه النبتة كانت منذ شهور مجرد شريحة من حبة طماطم تالفة اخترتها عشوائيًا لأغرسها في التربة وأمنحها دفعات من الاهتمام والرعاية لتنب وتكتب لها عمرًا جديدًا، وتتحوّل من جزء من القمامة إلى نبتة خضراء يانعة تعدني بالثمار في وقت قريب، كان ما حدث أشبه بالمعجزة وتغيير جذري في مسار حياة حبة الطماطم هذه، ولو أنني قررت الكتابة عن هذه النبتة قبل شهور، لقلت إن كثيرين منا يتمنون هذه المعجزة؛ يحلم الواحد منا -بعد أن استهلكته الحياة وأتلّفت قلبه الخيبات- لو يظهر من يختاره، هو بالذات رغم كل هذا الخراب، ويمنحه الكثير من الرعاية والاهتمام لينبت من جديد ويمنحه حياة أخرى.

ولكنني الآن أنظر للنبتة وأنا أعرف جيدًا أنني لم أمنحها ذلك الاهتمام لأجلها وإنما لأجلي، لأنني أفتقد ذلك الشعور بالفخر والإنجاز وأنا أراها

تنهض أمامي كالعنقاء من الرماد، غرسها في الأرض وتركتها تشق بذرتها،
تحفر جذورًا عميقة، تمتص ضوء الشمس وتحوله لغذاء، تبذل مجهودًا
مضاعفًا لتشق سطح التربة وتخرج خضراء مستقيمة وقوية، فعلت هي كل
هذا وأنا من يشعر بالإنجاز كل صباح!

الآن يا رفعت أنظر إليها وأنا أدرك أنها لا تعينني بذاتها حقًا؛ أنا فعلاً
أهتم بها، أحبها وأفرح لأجلها وأتابعها بشغف لأنني بشكل ما أعتبرها
معجزتي وإنجازي الخاص، لا لأنني أهتم لأمرها، لم يكن سيختلف الأمر
كثيراً لو كانت نبتة طماطم أو نعناع أو حتى صبار، المهم أنها تجيد ما تفعله:
تشعرنني بالرضا عن نفسي، بأنني قادرة على المنح، قادرة على الاهتمام
وأن هناك من يحتاج لرعايتي، بدليل ذبولها إن غبت عنها أو نسيته يومين
وربما موتها لو غبت للأبد!

لهذا لم يعد بوسعي أن أرى الأمر بالرومانسية القديمة، لن أتمنى أبداً
أن تحدث معي المعجزة نفسها، أن تمتد يد -تفتقد الشعور بالإنجاز-
لتنقذني، تمنحني القليل من الرعاية والاهتمام في مقابل أن أحسن التصرف،
أخوض معركتي تحت الأرض وفوقها ببراعة، لتشعر هي بالفخر!

قطتي أم مهووسة بالسيطرة، لم أتوقع أبداً أن تكون كذلك قبل أن تتورط في الأمومة، كانت مشاكسة، لا تعبر عن المحبة إلا قليلاً، ولا تسمح لي بأن أغمرها بالحنان إلا نادراً، لدرجة أنني كنت أخشى دائماً أن يموت صغارها من قلة الاهتمام لو أنجبت.

أراقبها الآن وهي تلهث كالمجنونة في البيت خلفهم، تراقب الظلال المتحركة خلف الأبواب بأعصاب مشدودة وهي متأهبة لمعركة وهمية لا تحدث أبداً، تصرخ إن غاب أحدهم عن عينيها لحظة، تحاول إجبارهم على النوم في موعد محدد ومكان تختاره، وتحاول السيطرة على تحركاتهم بين الغرف بإصرار يبدو لي مضحكاً لأنني أعرف جيداً أن الوضع لا يستحق كل هذا الهلع.

أرى نفسي فيها، أرى في جنونها هذا كل ما أخشاه في الأمومة، أن أحب لهذه الدرجة، وأن أعيش كل هذا القلق والخوف، و - نعم سأعترف يا رفعت - أن أحاول السيطرة على أطفالي بهذه الطريقة التي أكرهها.

اكتشفت منذ فترة، بمساعدة صديقة، أن جزءاً كبيراً من شعوري الدائم بالانزعاج والقلق المستمر سببه هوسي بالسيطرة، من وقتها أراقب أفكاري وتصرفاتي وأجد نفسي متلبسة تماماً بحب السيطرة على كل تفصيلة في حياتي، وأشعر بالسخط والرعب إن لم يحدث ما كنت أنتظره.

الآن أشعر أن شخصاً ما، أنضج مني أو أعلم، يراقب جنوني وخوفي الدائم ويهز رأسه بحكمة وهو يضحك: «يا مجنونة الحياة لا تستحق كل هذا الهلع».

ولأنني أشعر أحياناً أننا لا نكون نفس الشخص على مدى العمر، وأن كل نسخة منا في مرحلة ما من عمرنا هي شخص مستقل، أتخيل أن هذا الشخص الذي يضحك مني الآن هو أنا الخمسينية ربما أو الستينية، لا أعرف هل أشعر وقتها بالندم وألوم نفسي لأنني لم أستمتع بحياتي في هذا الوقت دون كل هذا الرعب؟

أتذكر فيلم About Time وأتمنى لو أملك نفس القدرة السحرية للبطل على العودة بالزمن، وأستخدمها مثلما فعل، لأعيش كل يوم مرتين، لا أصحح أية أخطاء ولا أتصرف بطريقة مختلفة، فقط أعيش نفس اليوم بكل تفاصيله منزوعاً من الخوف والقلق بعد أن عرفت أنه سيمر بسلام وأن أسوأ مخاوفي ليس حقاً بهذا السوء.

أحياناً أشعر بالخوف حين أجد الوحدة شهية لهذه الدرجة، حين أحارب لأحصل على ثوانٍ أقضيها فقط بصحبة نفسي، أخاف وقتها أن تأتي تلك اللحظة التي أجد نفسي فيها وحيدة جداً بطريقة لا يمكن تغييرها، لدرجة تجعلني أتمنى لو أنني ادخرت بعض الونس القديم لمثل هذه اللحظة.

أشعر بالخوف أيضاً من تلك اللحظة التي لا يمكنني فيها أن أكون وحيدة على الإطلاق، أنقبض كلما تصورت أنني في لحظة ما قد لا يكون بوسعي أن أتكور على نفسي في غرفة مغلقة ومظلمة دون أن أبالي بأي شيء / شخص خارجها، أشعر أن هذه العقوبة أسوأ كثيراً من الحبس الانفرادي الذي يهددون به من يسيء الأدب في سجنه.

لأجل هذه الوحدة الشهية أرى المشاركة أحد أجمل أشكال الحب، أعرف مكانة الآخرين في قلبي حين يكونون أول من يخطر ببالي أن أشاركهم شيئاً مهماً كان سخيلاً وتافهاً، أعرف أنني أحب صديقتي التي أشاركها طيلة اليوم النكات المضحكة التي أقابلها على فيس بوك، الأسرار التافهة والأفكار العبية، أشاركها غضبي طازجاً ساخناً كما هو في قلبي، أتحايل لأشاركها الأفلام التي أحب دون أن أفسدها عليها، أفرح لمحببتها حين أستيقظ لأجد بريدي متخماً بنكات مشابهة ورسائل صوتية وأفكار تباغتها في ساعات نومي.

ولأجل هذه الوحدة الشهية أيضًا أشعر أن أهم ما يمكنني أن أقدمه
لمن أحبه هو أن أشاركه الوقت، لا أمل صحبته ولا حديثه، لا أحتاج
للاختباء وحيدة في صندوقي بعض الوقت ليتوقف إفراز هرمون التوتر كما
القطط، يتوقف عقلي في صحبته عن الهروب بعيدًا وتخيل متعة أن أمضي
هذا الوقت بصحبة نفسي وحيدة.

اكتشفت أخيرًا أنني أحب أيامي المزدحمة، أحب ذلك الإرهاق الذي يجعلني أغرق في نوم عميق دون كوابيس ولا أرق، وأن تكون كل دقيقة من النهار مزدحمة دون وجود أي ثغرة للتفكير أو الشعور بالتعاسة، هذه الدوامة هي بشكل ما غيبوبة وحيلة لتميرير الأيام دون أي تفكير ولا حسابات وحجة جيدة لكي لا تفعل شيئًا مختلفًا خارج منطقة راحتك.

كنت أقرأ اليوم مقالاً عن الانطوائيين وسماتهم الشخصية وطباعهم التي تعقد دخولهم في علاقة حب، وبغض النظر عن الحب وجدت غالبية الصفات تنطبق عليّ، الدوائر الصغيرة من الناس، رهبة الأماكن المزدحمة بالبشر، التأخر في الرد على الرسائل بحثًا عن الرد المثالي، وحتى كتمان كل مشاعرهم العميقة تجاه من يحبون داخلهم، وكراهية الخروج بعيدًا عن مناطق الراحة، تسامحت مع نفسي كثيرًا حين قرأت المقال، هذه طبيعتي، هذه أنا، بإمكانني خلق عالم كامل في غرفتي، وقضاء وقت ممتع جدًا بصحبة نفسي، أو شخص أطمئن له كنفسي، كنت في الأيام الأخيرة أفكر كثيرًا في تلك الضغوط الجديدة التي يحاصرك بها المجتمع: إذا لم تسافر فأنت شجرة، إذا لم تخرج للمطاعم فأنت بيتوتي غريب، إذا لم تذهب للسبينا فأنت لا تفهم معنى هذه المتعة، إذا لم تخرج في عطلتك الأسبوعية فأنت شخص كئيب غريب الأطوار، وبالطبع إذا لم تحضر حفلًا واحدًا فبالأكيد لا تنتمي لهذا الزمن.

أشعر بالغربة وسط كل هذه الخيارات / المسارات الإلزامية للاستمتاع بالوقت، وأشعر بالخوف لمجرد تخيل أن يكون هذا هو أسلوب حياتي.

على ذكر الحياة، أصبحت أيضًا أكثر تصالحًا مع الوضع الحالي
باعتباره مؤقتًا ولكنني لا أعرف متى أشعر أن ما أعيشه ليس مؤقتًا وأن هذا
الشكل الذي ستستمر عليه حياتي؟ أعني: متى ألتقط أنفاسي وأتهدأ وأشعر
أنه الآن يمكنني أن أسند ظهري للوراء وأستريح؟

كانوا يبالغون «قليلاً» يا رفعت ويتساءلون بدهشة: ما الضير في ذلك؟ لم نكذب! ثم، كيف يا حمقاء تصديقين كلامنا حرفياً؟ تذكرني دهشتهم برد فعل أُمي حين تطلب مني ملعقتي أرز فأذهب وأعود إليها بملعقتين بالعدد، تضحك لسذاجتي وتقول مراراً: «هو عشان قلت ملعقتين يبقوا اتنين فعلاً؟» ولم أتعلم الدرس أبداً!

كانوا يبالغون «قليلاً» ولم أفهم الخدعة إلا قريباً جداً، بعد أن سلبتني مبالغتهم الرضا لسنوات طويلة! شعرت بالحنق حين اكتشفت الخدعة، حين اكتشفت أنهم جعلوني في بحث دائم عن سراب غير موجود، أشعر دائماً أنني لم أصل لذلك الذي يحكون عنه وأنه عليّ بذل المزيد من الجهد! أشعر أن تلك الفرحة داخلي لا تشبه تلك التي يبالغون في التظاهر بها! حياتي المليئة بالمشاكل لا تشبه تلك الوردية التي يخبروني عنها، حتى مبالغتهم في الحديث عن لذة الطعام جعلتني أفقد الثقة في ذائقتي، لم أشعر أبداً أنني كالمجذوبة حين أكتب، كما يحكون، إذاً لست كاتبة حقيقية. لم يسقط عليّ الإلهام من السماء، إذاً لست موهوبة، الموسيقى لا تصعد بي للسماء ولا أذوب في نغماتها إذاً أنا سطحية، لم أشعر أن أحدهم وقف مبهوراً أمام جمالي كما يدعين إذاً لست جميلة! لا شيء في حياتي يشبه ما يحكون عنه إذاً هناك خطأ ما!

حين اكتشفت الخدعة شعرت بمزيج من الحنق والشفقة يشبه الذي شعرت به قديماً، مع تلك الصديقة القديمة في المدرسة التي كانت تحكي لي طيلة شهور الدراسة عن أيام العطلة التي قضتها مع والدها وأسرتها

خارج البلاد، تحكي لي بابتسامة واسعة وعيون لامعة عن الملاهي التي زارتها والأيام التي قضتها على الشاطئ ومزاحها مع والدها والحنان الذي يغدق عليها به، لم أحسدها لكنني كنت أشعر بالسخط على حياتي، كنت أقارن ما تحكيه بأيام عطلي الطويلة المملة المتذبذبة بين اللحظات السعيدة والتعيسة وأتمنى لو كتب لي القدر قصة مختلفة، كفستها مثلاً.

بعد عامين ونصف اكتشفت أن هذا لم يحدث أبداً، أنها لم تر والدها لسنوات لأنه منفصل عن والدتها وأنها كانت تختلق كل ما تتمنى لو عاشته! كنا شريكتين في الأمنيات لكنها حين رسمت تلك الحياة التي تحلم بها وحكت عنها وكأنها واقع لم تعرف أنها تطلي صورة حياتي للأسود! تلك الحياة الحقيقية جداً، غير المبهرة أبداً.

يحكون عن مشاعرهم فتتطاير الفراشات وتتساقط النجوم ويرون وجه الحبيب في القمر، وأنا أحرق به أراه جميلاً لكنني لا أحتاج لرؤية وجه حبيبي فيه وأشعر بالابتذال إن حاولت ذلك! أشعر أن هذا الذي أكتبه عن مشاعري جاف وعادي وغير مبهر، لكنه حرفياً ما أشعر به!

أشعر بالغيب حين أجد أنه ليس بإمكانني تصديق كلامهم ببساطة دون أن أمرره على «فلاتر» وأجري حسابات معقدة، أفصل من حجمه لأنني أعرف أن فلان يعيش تضخيم الأمور، وأعكسه تماماً لأن الآخر لا يحكي ما حدث وإنما ما تمنى لو يحدث، كل هذه التعقيدات تزعجني وترهقني يا رفعت ولا أعرف أين المعضلة في أن نقول ما نعينه فعلاً؟

أفتقدك جدًّا يا صديقي رغم أنك لم تغب عني أبدًا في أيامي البيضاء، أنت دائمًا هنا، تؤنسني وتشاركني أدق مخاوفي وأفكاري: أدرش معك في المطبخ، وأنا مشغولة بالطهي أو تنظيف الصحون، وأبتسم حين ينتهي حديثي الصامت إليك بأفكار واضحة تطمئنني، وأفكر فيك وأنا في العمل، وأتمنى لحظتها لو أترك كل شيء لأكتب لك رسالة وأحكي عما أشعر به في هذه اللحظة، عن فكرة تشغلني أو عن ما أكتشفه كل لحظة في نفسي أو في العالم من حولي، أعد نفسي كل صباح أنني في هذا اليوم سأكتب لك، سأخبرك أنني في تلك الأيام التي أشعر فيها بالاطمئنان والرضا أحتاج أيضًا للحديث إليك.

ينتهي العام بينما أنا مشغولة ببدايات جديدة، شعرت بالدهشة وأنا أرى الآخرين يسجلون كشف حساباتهم للعام الماضي، للمرة الأولى لا أشعر أنني أدفع ما تبقى من العام المحتضر كحجر ثقيل، للمرة الأولى تقريبًا أشعر بالامتنان تجاه عام مضى.

كان عامًا حافلًا بالموت والفراق والحزن ولكنني أدركت فيه أكثر من أي وقت آخر كم يغدقني الله بكرمه ولطفه وتديره، وعدت نفسي في بدايته أن أكون شجاعة، وكان هذا الهدف الوحيد الذي تحقق من قائمة قرارات العام الجديد، لكنني راضية جدًّا به، كنت شجاعة بما يكفي لأرحل كلما شعرت أن سلام نفسي مهدد، وأن ما أخسره إن بقيت أكبر مما أربحه.

أشعر الآن بالامتنان لكل تجربة مرت في هذا العام وجعلتني أدرك قيمة نفسي أكثر، أشعر بامتنان أعمق تجاه كل الصادقين الذين اقتربت منهم أكثر هذا العام، تجاه بساطتهم وصراحتهم معي، وحديثهم الشفاف عن تلك المخاوف داخلهم، والتي قللت إحساسي بالغرابة في هذا العالم. أشعر بالامتنان لمكالمات زينب الطويلة، لصدقها، لمساحة الأمان والراحة بيننا. أشعر بالامتنان لرحلة السابعة صباحًا، وكل الثقة التي مُنحتنيها في التجربة، أشعر بالامتنان لأن لي بيت أحب الرجوع إليه، لسمكة حظي الذهبية والبهجة الخالصة التي تمنحها لي.

أشعر بالامتنان لك يا رفعت، لكل لحظات السعادة التي كانت هذه الرسائل إليك سببًا فيها، لهذه المساحة من الإنصات والمشاركة، ولا أتمنى في العام القادم أكثر من هذه اللحظة، حين ينتهي بحلوه ومره لا أشعر إلا بالامتنان تجاه التجربة التي لا تكون دائمًا وردية لكنها تجعلني أنضج وأكبر.

بعد عشرات المحاولات الفاشلة، أنجح أخيراً في حل اللغز، أنتهي منه لأبدأ التالي ببقايا إحباط؛ ولكن اللعبة الظريفة الملونة بدلاً من أن توبخني لأنني تعثرت كثيراً قبل أن أنجح في حله، تربت افتراضياً عليّ وتشجعني: «لقد نجحت في حله بعد تسع محاولات، وفي المعتاد يحتاج إلى ١٥ محاولة». أشعر بالزهو، وأفكر في أن كل ما احتجته في السنوات الماضية أن يهمس أحدهم في أذني بعبارة مشابهة: «كان الطريق طويلاً يا سارة وشاقاً، تعثرت كثيراً ولكنه في المعتاد يحتاج لبذل كل هذا الجهد».

الكثير من الخوف والأسئلة كانت ستختفي لو أنني فقط عرفت أن الحياة ستكون بهذه الصعوبة، لو أن أصحاب قصص النجاح المبهرة لم يصوروا أنفسهم كأبطال خارقين، ولم يخفوا عنا شعورهم بالإحباط والخوف واليأس، كنت سأوفر على نفسي الكثير من الخوف يا رفعت لو أن أحدهم أخبرني أن من حقي أن أشعر بالخوف.

خدعونا قديماً حين أوهمونا أن «الكبار لا يكون» أن الكبار يعرفون ما يفعلون ولا يجب أن يشعروا أبداً بالخوف، لهذا تكبر بينما يخنقنا البكاء ويلازمنا الخوف فنظن أننا لم تكبر بما يكفي، ثم نفاجأ بأننا كبرنا ولم يعد بوسعنا أن ننكر ذلك، ولكن في أعماق قلوبنا لم يغادرنا الخوف، فنظن أننا لم تكبر كما ينبغي!

ولأننا نصدق ما أوهمونا به نشعر بالسخط تجاه هؤلاء الكبار الذين لا يتصرفون كـ«الكبار» الذين أخبرونا عنهم، نغضب منهم لأنهم تخبطوا،

وأخطأوا وكانوا أجبن مما نتوقع ولأنهم حين اختبأنا في أحضانهم اكتشفنا أنهم يرتعدون من الخوف!

نغضب طويلاً ثم نسامحهم أخيراً، حين نجد أنفسنا في المكان نفسه، كباراً خائفين يفعلون ما في وسعهم لإخفاء خوفهم وتخبطهم بمكابرة أطفال، مذعورين لأنهم ما زالوا يبللون الفراش ويخشون أن يكتشف زملاؤهم في المدرسة ذلك ويكتشفون أنهم لم يكبروا بما يكفي بعد!

لهذا السبب أفرح حين أعرف أننا - أنا وأنت - اكتسبنا صديقاً جديداً يا رفعت، يحب رسائلي إليك، يختلط حزني بفرحي ويتبدد شعوري بالوحشة حين أعرف أن أحدهم شاركني شعوراً قاسياً أو خوفاً مررتُ به وحكيت لك عنه.

أطمئن حين أعرف أن أحدهم سمع مني أن الحياة ليست سهلة، ولا بأس أن يشعر بكل هذا الخوف والتعب، حين كنتُ أصغر وأكثر سذاجة، كنتُ مملوءة بأوهام تغيير العالم وتلك البصمة التي يجب أن يتركها كل منا في الحياة، ولكنني الآن أفضل أن أكون تلك الكتف التي يميل عليها أحدهم ليلتقط أنفاسه ويواصل استكشاف طريقه.

أصبحت الآن أخاف من ترديد عبارات خاوية من القوة، عن الأحلام الكبيرة وعن ضرورة أن نطحن أنفسنا ونختبر طاقتنا للحد الأقصى لنحقق إنجازاً ما.

أحاول ألا أكون قاسية على نفسي، وأبذل جهداً كبيراً لأفعل ذلك وأكف عن مطاردة الكمال وتتبع نواقصي وتضخيمها في عيني.

أقرأ هذه الأيام خطابات فنسنت فان جوخ، أحبته جدًا منذ قرأت قوله: «لن أعيش دون حب»، تحديدًا حين قرأت استطرادًا من ناشر المقولة بأنه لم يحصل على ذلك الحب أبدًا، بكيت لأجله كثيرًا حين شاهدت ذلك الفيلم عنه، وشعرت أنني أريد أن أربت على كتفيه وأضمه بحنان، ومن وقتها كلما رأيت لوحة له يجتاحني الشعور نفسه.

حين قرأت رسائله تمنيت لو أن أحدًا كان إلى جواره ليخبره أنه «لا بأس»، تمنيت لو كنت هناك بقربه أخفف عنه قليلًا، أقرأ وأتخيل ملامحه وهو يحكي بفرحة طفولية عن أن أمور عمله بخير، فرحته بالراتب وبالمكافأة وبأنه أصبح بإمكانه أن يستقل أخيرًا، غاص قلبي حين شعرت بحيرته وهو يحكي عن طرده - ضمنيًا - من العمل وخوفه من المجهول، شعرت بوحدته وغربته وبأنه طفل صغير والعالم متاهة.

تذكرني حساسيته بمخاوفي على صغيري عُمر، أخاف أن تؤذيه الدنيا ولا تتفهم رهافته، أخاف أن تصدمه نظراته المثالية للعالم وإيمانه المطلق بالعدل، وأن كل شخص يجب أن يحصل فقط على ما يستحق، وهو ما أعرف جيدًا أنه لا يحدث أبدًا. أشعر دائمًا أنه وفنسنت صغيري الذي لم أنجبه وربما لن أنجبه أبدًا وأتمنى لو أتحول إلى طاقة سحرية تحيط به لتحميه من هذا العالم.

أفكر منذ أيام ما الذي يجعل أحدنا جميلاً في عين الآخر؟ ما الذي يجعل أحدهم جميلاً دون غيره في عيوننا؟ هل تفعلها المحبة؟ كل العيوب / الندوب والخطايا الصغيرة تحولها المحبة إلى مميزات تجعله شخصاً فريداً لنحبه أكثر، ربما لهذا السبب يصفون - المحبة - بالكيماء. كلما احترنا في فهم الأسباب التي تجعل أحدهم يقع في حب آخر رغم كل عيوبه، نهز أكتافنا ونمط شفانا ونحن نقول باستسلام «كيما»، معلنين انتهاء محاولتنا للعثور على أسباب منطقية.

ربما هي «الكيما»، وربما هو الاهتمام ما يجعل أحدهم فريداً بالنسبة لنا أو بمعنى أدق «يجعلنا نراه». هناك مقولة لا أذكر صاحبها وضعت قانوناً بسيطاً: «إذا أردت أن تكون مهماً، كن مهتماً»، قرأتها في طفولتي وكنت أنقلها من مفكرة لأخرى دون أن أفهم معناها الحقيقي، ولكنني بالتجربة عرفت أن بعض الأشخاص لم يكونوا مرثيين على الإطلاق حتى اهتموا بنا، فرأيناهم، واهتمنا باهتمامهم، ثم بهم، ثم اكتشفنا مدهولين أنهم أصبحوا ضروريين في حياتنا كجرعة مخدرات.

يجعلني هذا أفكر كثيراً في حقيقة ما يعنيه شخص ما بالنسبة للآخرين، هل ما يعنيه هو ما يمنحه أم ما يأخذه؟ هل تعني اهتماماتنا وتفضيلاتنا وحياتنا السرية شيئاً للآخرين؟ أم يعينهم فقط ذلك الوجه الذي يروونه منا كل يوم؟ هل يهتم أحد فعلاً بما تحب وما تكره دون أن تتقاطع هذه الدائرة مع دائرة تخصه؟ هل يهتم أحدهم بكوايبسك؟ بأسباب أرقك؟ بالذكريات التي تجلبها الروائح لرأسك؟ هل يهتم أحدهم بك لأجلك؟ فقط لأجلك؟

هكذا أرى الحب، أن تعني كل تفاصيلنا آخر، دون أن تتقاطع مع دوائره،
تعنيه فقط لأنها تخصنا ونحن «نهمه».

أعرف منذ سنوات أن مشاعري تتحكم في عيني حتى أنني أدرك
أحياناً أنني غاضبة من أحدهم لأنني لا أراه جميلاً اليوم، فهل يمكنني أن
أحب أحدهم لدرجة أن أراه جميلاً حتى وأنا غاضبة منه؟ هل ينبغي أن
أفعل؟ ربما الأفضل ألا أحب لهذه الدرجة التي يحكون أنها تجعل المرء
عمياء يا صديقي.

ترعبنى الأمومة، كنت أراقب أُمِّي تقف بشجاعة عند رأس ابنتها الكبرى التي خرجت لتوها من غرفة العمليات، كانت تتألم فيغوص الألم عميقاً في قلبي، وأشعر أنني أريد أن أجري بعيداً لأنفادي كل هذا الألم، راقبت وجه أُمِّي تلقائياً مشفقة عليها من كل هذا الوجع، ولكنني رأيتها متماسكة صبورة، تربت على رأسها بحنان وقوة وتخبرها أنه «لا بأس.. انتهى الجزء الأصعب».

أُمِّي نفسها التي كانت تتحمل صراخي المفرع وهي تطهر لي جرحاً صعباً في الطفولة، أعرف أن جروحي سيئة، لا تطيب بسهولة، وأعرف أنني لا أحتمل الألم، وكنت أحاول التملص منها تارة وأستجديها تارة أن تترك جرحي كما هو، دون أن تلمسه أو تطهره، وليحدث ما يحدث، ولكنها كانت دائماً تصر على أن تفعل ما ينبغي عليها أن تفعله.

أشعر بالخوف لأنني لا أملك هذه القوة، أنا هشة جداً وضعيفة أمام ألم من أحب، وجسدي يخونني في كل مرة، إما أنام أو أنهار لأهرب من كل هذا الألم.

قطعتي الصغرى أصبحت أماً قبل أسابيع، ومراقبتها تضاعف هواجسي، كنت أظن أمها مهووسة بالسيطرة حتى رأيتها تكاد تجن كلما سمعت مواء قطرة في مكان ما، حتى لو في الشارع، فجأة تغير كل عالمها، بعد أن كان المبيت قرب أنفاسي هو طقسها الليلي المقدس فجأة أصبح لديها عالمها الخاص الذي لا يزيد على مربع ضئيل اختارته بعناية لتحمي صغارها فيه.

في يومها الأول لم تغادرهم حتى لتناول الطعام، وانتظرت ساعات طويلة حتى عدت من عملي لأضع الطعام قريبا، في الأيام التالية باتت تفتقدني فتطل للحظات من باب الغرفة لتطلب الوصل ثم تدخل لصغارها سريعا.

ارتباك الأولويات لهذه الدرجة يرعبني، لا يمكنني أن أتخيل أن يتغير عالمي فجأة ليدور حول فلك قطعة أخرى مني، لكنها ليست أنا تماما. يفزعني مجرد تخيل ألا يكون بوسعي أبدا أن أنفرد بنفسي وقتما أردت.

أفصح لأمي عن هواجسي فتبتسم وتخبرني أنني سأكون أمًا رائعة، ولكنني لا أخاف فقط من ألا أمنح أطفالي ما يحتاجونه من محبة واهتمام، وإنما أخاف أيضا أن أنسى نفسي أمامهم، أن أتلاشى فلا أرى نفسي إلا من خلالهم، ثم أجد نفسي فجأة أطلبهم بأن يكونوا من لم أكنه وأن يفعلوا ما لم يسعفني الوقت لأفعله.

هل ينقذنا السفر من كل الطرق غير المكتملة والأحلام المبتورة؟
هل نحمل في الأرض الجديدة روحًا شابة وطاقة جديدة وقدرة أكبر على
الاحتمال أم نحمل خيبتنا خلف ظهورنا في حقيقة السفر؟

أشعر أحيانًا أنني أشبه قاتل المئة في القصة الشهيرة، كل ما أحتاحه
أن أرحل لأرضٍ جديدة أكون فيها حرة من ذلك الإطار الذي حبسني فيه
الآخرون، لا أقابل من يتعجب من وجهي الجديد، لن يشككوا في أن أنجح
في تغيير نفسي ولا ينتظرون بترقب أن أفشل بعد بضع خطوات ليهزوا
رأسهم بحكمة وملل «ألم نقل لك؟ لا أمل»، لا يتوقعون مني ردود فعلي
المعتادة ولن يعاتبوني: ما الجديد هذه المرة لتعاملينا بما نستحق؟

وأحيانًا أخاف أن تتحقق تلك الأمنية، أن تتاح لي الفرصة الثانية التي
تثبت لي أن العيب فيّ، لا في الآخرين، وأجد نفسي أكرر الاختيارات
الخاطئة نفسها، وأتعامل مع العالم بالطريقة القديمة، وأخاف كثيرًا أن أكرر
الهرب مرة بعد أخرى حتى تنتهي الأرض ولا أجد بقعة جديدة أرحل إليها
بنسخة جديدة من روحي، ومحاولة جديدة لتفادي الأخطاء القديمة.

أطمئن نفسي بتذكيرها بشخصيتي التي أفاجأ بها في أي أرض غريبة،
حين أشعر أنني خفيفة بلا أي التزامات ولا واجبات، خفيفة لدرجة أنه
بإمكاني أن أرد على كل المكالمات التي تردني دون خوف ولا تردد لأقول
ببساطة لأصحابها: «لن يمكنني أن أفعل شيئًا الآن. أنا على سفر».

أفكر أكثر فأكتشف أن الطريق هو أكثر ما أحبه في السفر، تلك اللحظات التي أسمح فيها لعقلي أن يهدأ أخيراً دون ذرة شعور بالذنب، أعشق أن أكون داخل سيارة أجرة على طريق طويل، لا أملك أن أفعل شيئاً إلا الاستسلام للزمن والمسافات، الشعور المريح بأن كل شخص يقوم بدوره وأنا كل دوري أن أجلس في هدوء بينما العالم كله يدور من حولي.

أكره تلك الأيام التي أستيقظ فيها بذلك الجبل على صدري، في البداية أشعر بالثقل الجاثم على قلبي، ثم يزداد وعيي تدريجيًا، وأدرك - آسفة - أن ما أبكاني بالأمس لم يكن كابوسًا، أتذكر كل شيء، الحلم الذي تحطم وبكيت، دموعي، خوفي، الانتظار الثقيل والشعور بأن العالم انطفأ في عيني. ثم يأتي الأصب، تلك اللحظة التي أضطر فيها لسحب جثتي من السرير لأبدأ «يوم جديد».

أكره هذا الشعور بالثقل لكثرة ما حملته، أكره «الهم» والخوف والفرحة المبتورة والضحكات التي لا تخرج من قاع القلب بل تخدش بالكاد ملامح وجهي.

في بعض الأيام يحدث ما هو أسوأ، لا أتذكر ماذا يثقلني ولكن هذا لا يقلل أبدًا من شعوري بالهم بل يضاعفه، أضطر لاجترار كل الأحداث المزعجة في اليوم، وأحيانًا في الأسبوع المنصرم لعلّي أتذكر أيهم بالضبط يزعجني الآن ولكنني أفشل، لا يعلق في ذاكرتي إلا ذلك الشعور المزعج بأن كل نفس أسحبه أشده بمعاناة من أسفل جوال ثقيل من الرمل.

في هذه اللحظة، يلح عليّ ذلك الشعور، يحرضني على البكاء، يغريني «سيتبخر مع الدموع» ولكن ما يحدث في النهاية هو أنني أحصل على عينيّن متفختين وصداع قوي كمكافأة.

لكنني لستُ جاحدة، أنا أتذكر أيضًا تلك اللحظات النادرة التي أكون فيها بخفة شعرة. لذة الإحساس بالسلام والهدوء، اللحظات التي أشعر

فيها أن العالم صمت من حولي، ليس ذلك الصمت الكئيب المقبض وإنما صمت رائق وكأنه يحمل موسيقى خفية.

الشعور بأنني متعادلة مع الحياة تمامًا، لا لي ولا علي وأني مطمئنة على كل ما يهمني في هذا العالم.

أتذكر ظهر ذلك اليوم الصيفي في شقتنا، حين انتهيت من ترتيبها وأسدلت الستائر ورششت عطر الفل في كل غرفة، واسترخيت على الأريكة أمام التلفزيون وإلى جوارتي القطط مستغرقة في نوم هادئ، يومها تصالحتُ أخيرًا مع ذلك الوقت من النهار الذي كرهته طويلاً.

أتذكر أيضًا ذلك اليوم الشتوي حين دخلت غرفتي أخيرًا بعد يوم طويل، ارتحت على سريري الدافئ دون أن يكون في قلبي ذرة شعور بالانزعاج أو القلق أو الأسئلة.

أتذكر فجر ذلك اليوم الذي انتهيت فيه من طلاء غرفتي وأعدت ترتيبها كاملة ثم حظيت بحمام دافئ غسل عني تعب ليلة كاملة، ثم اندسست في سريري بكل هذا الشعور الرائع بالتعب الذي يذكرني بإنجازي.

وأذكر كذلك الخفة التي أشعر بها حين أسافر في نهاية الأسبوع وأترك خلفي القاهرة بكل ثقلها وهمومها والتزاماتها لأرتمي في أحضان أمي وفي أحضان ذلك البيت الهادئ والصمت الذي ينسدل على الشوارع من لحظة مغيب الشمس.

أذكر كل هذا لكنني الآن في هذه اللحظة، أتمنى لو أنهى الأسبوع حالاً، وأترك العالم خلفي وأرحل.

هل ينبغي أن أحذرك قبل أن تقرأ الرسالة أنني سأحرق لك أحداث فيلم شاهده مؤخرًا وربما لم تشاهده أنت بعد؟ بالمناسبة أحب أن أحكي قصص الأفلام التي شاهدها لأشخاص أحبهم، أشعر وقتها أنهم كانوا إلى جوارى على الأريكة ونحن نشاهد الفيلم ذاته وأن هذه الأفلام تنسج بيننا خيطًا مشتركًا، تجعلنا ننظر لبعض الأشياء من زاوية قريبة وتجعلنا نفهم بعضنا أسرع، المهم هذه الرسالة ستحرق أحداث فيلم أحبيته وأرعيني وكانت دقائق مشاهدته ثقيلة جدًا على أعصابي رغم أنه أمتعني، وجعلني أفكر فيه طويلاً بعد مشاهدته.

في البدء كنت أشعر برعبٍ وخوفٍ ثقيل طيلة الفيلم وأنا أرى البطلة / الضحية تقترب جدًا من القاتل المجنون، تضع كامل ثقتها فيه بعد أن فقدت بصرها، ترتمي في أحضانه هربًا من القاتل المجهول الذي يهددها، تشاركه الطعام والشراب والذكريات، تقبله وتحكي له عن زوجها الذي رحل لتوه دون أن تفهم، ودون أن تودعه بشكلٍ لائق.

كدت أصرخ عدة مرات وأنها «يا حمقاء. هو القاتل. هو من يهددك» ولكنها لم تدرك ذلك قبل فوات الأوان. كان حنانه يحاصرها بشكلٍ مربع، وقاتل.

ولكن في النهاية، رغمًا عني وجدتني أتعاطف معه، وهو يكشف بغضب أنه يرتكب جرائمه انتقامًا من كل لم من يرويه في هذا العالم، وكل من لم يمنحونه الحب.

كان شخصًا عاديًا لدرجة أنه أصبح غير مرئي وهذا جعله غاضبًا جدًا وخطيرًا جدًا. لم يخبره أحد على الإطلاق أن به شيء واحد مميز، على الرغم من ذكائه الواضح في براعة تنفيذ جرائمه دون دليل واحد خلفه، ورغم حنانه الذي كان يقدمه لضحاياه لأيام وأسابيع طويلة قبل ارتكاب الجريمة.

تعاطفت معه كثيرًا كان يشعر أن كل تلك العيون حوله، التي تعبّره دون أن تراه، لم يعد لها أهمية، كان يشعر بأن الناس حين يغمضون عيونهم رغماً عنهم، ويرون فقط ما هو قادر على تقديمه لهم يحبونه فعلاً ويدركون أهميته، فكان يفقدهم بصرهم للأبد.

نقع في هذا الفخ كثيرًا، فنكون مرة الضحية ومرة الجلاد، نغمض عيوننا عن أشخاص قريبين جدًا لكننا لا نرى منهم إلا تلك الصورة التي رسمناها مسبقًا لهم، ثم نبكي لأن أحدهم يعجز عن رؤيتنا لأن صورة ما لنا في عيونه تقف حاجزًا بيننا، نبكي ونغضب لدرجة أننا نتمنى لو تمكننا، كقاتلنا هذا، أن نفتح عيونه على وسعها، نقشر تلك الصورة المزيفة لنا داخلها، ونجعله يرانا!

هذه المحاولة العشرون ربما لكتابة هذه الرسالة، عقلي مشوش جداً على الرغم من أنني بخير، أفتقدك وأحاول الكتابة إليك مراراً ولكنني لا أنجح، وأصبح لديّ عشرات المسودات لرسالة تحمل الرقم ذاته وأفكار مختلفة لكنني عاجزة تماماً عن التعبير عنها.

أكره جداً هذه الحالة، وأعرف أنه لن يمكنني تجاوزها إلا بما أفعله الآن: الكتابة؛ حتى لو كان ما أكتبه كلاماً فارغاً ومجرد عبارات متراسة جنباً إلى جنب، مؤخراً قررت أن أقاوم بحثي الدائم عن الكمال بهذه الطريقة، دائماً ما كنت أؤخر الأعمال التي أتمنى إنجازها بطريقة مثالية حتى آخر لحظة لأنني لا أجد طريقة رائعة لإنجازها، وفقط حين يحاصرني الوقت وأجد نفسي مضطرة لإنجازها أدرك أن كل ما كان يحول بيني وبينها هو الوهم.

أصبحت أقول لنفسي في النهاية ستقومين بها ولن تكون مثالية، فلتنجزها الآن واستمتعي على الأقل بوقتك.

على الرغم من محاولاتي الفاشلة لكتابة هذه الرسالة منذ أيام كان لديّ الكثير من الأفكار التي أحببت أن أشاركها معك، فكرت فيك مثلاً حين انتهيت من مشاهدة فيلم «يو هاف جوت ميل» للمرة الثانية، أتخيلك تشاهده إلى جوارى وتحاول إخفاء تأثرك برومانسيته، ربما تشعر بالاطمئنان لأنك تعلم بالنهاية السعيدة للفيلم بالفعل ولكن هل يمنعك هذا من التعاطف مع أبطاله والبكاء لأجلها تارة ولأجله تارة أخرى؟ هل تشعر مثلي لو أنك تود كشف الحقيقة لها وتطلب منها ألا تقسو عليه لهذه الدرجة لأنه في النهاية ليس كما يبدو لها؟ هل تشعر بالرغبة في أن تربت على كتفيها وتخبرها أنه لم يخذلها، ولم يغب عن الموعد بل كان أقرب مما تظن؟

عشرات المشاعر عشتها مع الفيلم وكأنني أراه للمرة الأولى، وتمنيت مرة أخرى لو أن معجزة ما تضعني في أحداث ولو حتى لأحظى بطقس نيويورك في الخريف.

وددت أن أحكي لك عن الطعام الذي أخذه من البيت للعمل وتصفه صديقتي بأنه «أكل طيب» لا تقصد مذاقه وإنما تقصد أنه يشبه الإنسان الطيب، أحببت وصفها الذي يعبر بدقة عن سبب حبي لاصطحاب أي شيء من البيت للعمل، أنا أحب البيت وأشعر حين أفعل ذلك أنني أواجه العالم بتميمة من البيت، يمنحني ذلك شعورًا بالطمأنينة يشبه إحساسي بأن أمي تزورني في المدرسة.

أحب البيت وأشعر أن الأشياء يكون لها مذاق حقيقي فقط داخله، الماء، الشاي، القهوة حتى الأكل من مطعمي المفضل مذاقه يختلف داخله. يذكرني تعلقي بالبيت بالقطط، هم أيضًا يرتبطون بالبيت أكثر من البشر ولا يبالون مطلقًا بالوحدة طالما يعيشون في بيت يألّفونه.

على ذكر القطط، شاهدت أمي ذلك الفيديو الذي حاولت مرارًا نسيانه أو تجاهله لقطة تتمرغ على قبر صاحبته وكأنها تود إخراجها من داخله، حين شاهدت هذا الفيديو قبل أسابيع بكييت طويلًا وأبكي الآن وأنا أتذكره، لا أحب أن أفكر في تلك اللحظات، ولكن كلما فكرت في موتي أفكر في القطط، هل يفقدونني؟ هل يتأقلمون مع غيابي؟ هل تزورهم روعي بعد رحيلي مثلما زاروني مرارًا في طفولتي؟ لا أعرف هل نلقاهم في الحياة الأخرى أم لا ولكنني أتمنى لو يحدث ذلك ربما لا أشعر وقتها بالوحشة في العالم الآخر.

هل تؤمن بالتخاطر يا رفعت؟ لا أقصد حماقات الرقود في الظلام والتحديق في الفراغ مع ترديد اسم معين ١٠ مرات! وإنما أقصد ذلك التواصل الذي يحدث رغماً عنا مع آخرين، ولا يحتاج للتفرغ أو الظلام أو الهدوء وإنما يفرض نفسه علينا في ذروة انشغالنا ورغم كل الصخب والضجيج من حولنا، أو ربما يحدث بسببه، أن نجد أرواحنا تهرب من كل هذا الزحام والقلق والضغط إلى مكان آمن.

قبل سنوات لم أكن أؤمن بهذه الفكرة، ولكنني الآن أجدها مطمئنة ومريحة جداً للحد الذي يجعلني أبتسم دون سبب أكثر من مرة خلال اليوم. أحب أن أطمئن نفسي بأن أولئك الذين يمرون ببالي الآن بشكل ملح دون سبب واضح يفكرون بي في الوقت نفسه، ربما أكون واهمة ولكن ما الضرر في ذلك؟



أفكر كثيراً يا صديقي أيهما أجمل أن يكون ما يربطنا بالآخرين الحب أم الحاجة؟ قبل أن تجيبني هل انتهت للفخ؟ يجيب الكثيرون «الحب طبعاً» ولكنهم رغم ذلك يرون عبارة مثل «لا يمكنني العيش بدونك» رومانسية جداً!

كنت كذلك ولكنني الآن أرى الأكثر رومانسية وجمالاً أن يمكننا أن نعيش بدونهم ورغم ذلك نريد القرب منهم لأننا نحبههم فعلاً، لا لأن غيابهم ينقصنا ولا لأننا ندمهم ولا لأننا تعساء من دونهم، نحبههم لأجلهم،

لأجل وجودهم الذي يزيد شعورنا بالطمأنينة وبأن العالم أجمل، ولكننا بلا شك لن نموت من دونهم ولن يموتوا كذلك.

قد يشعرنا بالزهو أن نعرف أن وجودنا ضروري لأحدهم، يرضي هذا غرورنا وربما خوفنا من أن يستغنى عنا هذا الآخر، ولكن في الحقيقة لا نكون أبدًا كذلك، هذه الفكرة إما وهم يتخيله هو أو نزرعه نحن في خياله أما الحقيقة أن الحياة تمضي.

قد يكون هذا صادمًا وعمليًا وجافًا جدًا يا رفعت ولكن ألا تشعرك بأنه يجعل الحب منزلًا عن أي شبهة ابتزاز عاطفي؟

أحب يا رفعت أن أقول لأحدهم كن بجانبني لأنني أريدك لا أن أقول ابق لأنني سأنهار دونك، وأنا أعرف، وهو يعرف أن هذا لن يحدث.

اكتشفت مؤخرًا أن أسوأ ما أفسد عليّ حياتي كان خوفي الذي نهش كل قطعة طمأنينة في قلبي، واكتشفت أن حياتي لم تكن مأساوية بقدر خوفي، خوفي كان المأساة، والحياة الموازية التي عشتها في مخاوفي كانت أسوأ كثيرًا من حياتي نفسها.

قبل عدة سنوات كانت لديّ أحلام كبيرة، أو كنت أظن ذلك، يسألونني عن أحلامي فأفكر في تغيير العالم، أو تغيير المحيطين بي على الأقل، في بصمة تجعل الناس يتذكرون أنني مررت هنا يومًا ما، ولكنني قبل عامين حين سئلت عما أريده أكثر من أي شيء آخر في هذه الحياة أجبت بلا تردد «الأمان».

أبكي الآن وأنا أدرك إلى أي حدهي أمنية مستحيلة، لا لسبب إلا لأن كل ما يمكن أن يخيفني في هذا العالم موجود فقط في رأسي.

في الكثير من الأحيان، حين أكون غاضبة جدًا وأشعر بأعصابي تحترق بسرعة كفتيل قبلة ألجأ لأخي، يسمعي ثم يسألني باهتمام عن أسوأ ما يمكن أن يحدث لو تحققت أسوأ مخاوفي في الأمر الذي يوترني الآن؟ أخبره بالاحتمال الأسوأ فيسألني وماذا يمكن أن يحدث لو وصلت لهذه النتيجة؟ أدرك بنفسي أنه لا شيء مرعب بهذا القدر يمكن أن يحدث فأطمئن. أحاول مؤخرًا أن ألعب هذه اللعبة مع نفسي، أصل في لعبة الاحتمالات لمستوى الوحش، أسأل نفسي عن أسوأ ما يمكن أن يحدث،

فأجده جيداً، أجده في الواقع قراراً تمنيت مراراً لو اتخذته لكنني لا أملك من الشجاعة ما يكفي لاتخاذها فأهدأ.

يقول لي الكثيرون إنني سأكون أكثر هدوءاً وأقل توترًا / خوفًا حين أتقدم في العمر. ينضم هذا إلى قائمة الأسباب التي تجعلني أتوق لهذه المرحلة من عمري، ولكنني أخاف فعلاً أن أكبر دون أن أتخلص من هذا الفلق المزمّن، أتذكر مقولة د. أحمد خالد توفيق - رحمه الله: «أتمنى أن أبكي وأرتجف، التصق بواحد من الكبار لكن الحقيقة القاسية هي أنك الكبار» ويتضاعف خوفاً.

كنت أفكر بعدما قرأت رسالة من صديقتي ريم، كم هو مرعب هذا الخوف، أظن يا رفعت أن أصل الشرور، كل الشرور، هو الخوف! أظن أن الجشع، الطمع، الوحشية، الأنانية، التسلط والخسة، كلها في الأساس يحركها الخوف.

يدللون دائماً على غدر القطط بالتهامها أطفالها ولكن الحقيقة أن هذا إن حدث لا يحدث إلا بسبب الخوف، هو دائماً البذرة الخبيثة التي تنمو فتصبح غدرًا أو كذبًا أو جبنًا أو قسوة أو أي شيء آخر نحاول، واهمين، أن نحتمي به من الخوف!

هل يمكنك أن تطمئنني يا رفعت؟ هل يأتي يوم ويسكن هذا الوحش؟

كل ليلة حين أختبئ في سريري، تلتف القبط حولي من كل جانب،
تلتصق بي كضمادة عملاقة من الفرو، يمتص صوت خرخرتهم المطمئنة
كل توتري وضغوطي، أبتسم لأنني - بكل هشاشتي - قادرة على منح
الطمأنينة لأحدهم، يندس أصغرهم تحت الغطاء ويستقر بين ذراعيّ بدلال
ويداعب وجهي كطفل، فأشعر أنني بعد عدة ساعات في قربهم قادرة على
مواجهة العالم ليوم آخر.

يقول أحدهم على فيس بوك: «يتعافى المرء بأصدقائه» يشكك آخر:
«لا يتعافى المرء»، أقول لنفسي أتعافى بالقبط، بالبيت، بالكتابة، بأصدقائي
الطيبين، بدعمهم والنظر لنفسي بعيونهم، بطعام أمني ودعائهم، بالرضا،
بإخوتي، بحضن صغار أخي، بمحبة خالصة من أشخاص لم أقابلهم أبداً،
بقرب من أحب، بالشعور بالتقدير، بأفلام أحبها، بكتاب ممتع، بالكتابة مرة
أخرى، وبك يا رفعت.

يتعافى المرء ولكن المرعب أن نتعافى لنختبر الألم نفسه من جديد،
لنعيش عذاب سارق النار المقدسة، تنبت كبدا وتلتئم جروحنا كل ليلة
ليكون لدى الرخ ما يأكله في الصباح التالي.

أشعر بالحيرة، هل هذه في النهاية هي الحياة؟ هل النضج أن ندرك
أننا لا نتعافى إلا لنتمكن من مواصلة اختبار الألم / الحياة؟ أن نتلقى كل
الصفعات بثبات ونحن نخبر أنفسنا أنه لا بأس أن تأتي يوماً صفقة أقوى من

اللازم فنهوى على الأرض لنتلقت أنفاسنا وننهض لتلقي التالية بثبات من جديد؟ أم النضج أن نخرج من دائرة اللعنة ونتعافى فعلاً بالبعد عن طائر الرخ النهم للأبد؟

أطرح السؤال على نفسي منذ سنوات ولا أجد أبداً الإجابة، من وقتٍ لآخر أتبنى إحدى الإجابتين، أجد نفسي مقتنعة تماماً بها، وبعد أيام أو ربما أسابيع أو شهور أختار الإجابة الأخرى باقتناع تام، أعتبر نفسي الآن نضجت، وكنت حمقاء فيما سبق، وبعد شهور أعود للأولى، و... إلخ.

ترعبنى الأمومة يا رفعت. كنت أراقب أُمِّي تقف بشجاعة عند رأس ابنتها الكبرى التي خرجت لتوها من غرفة العمليات. كانت تتألم فيغوص الألم عميقًا في قلبي، وأشعر أنني أريد أن أجري بعيدًا لأنفادي كل هذا الألم. راقبت وجه أُمِّي تلقائيًا مشفقة عليها من كل هذا الوجع، ولكنني رأيته متماسكة صبورة، تربت على رأسها بحنان وقوة وتخبرها أنه «لا بأس.. انتهى الجزء الأصعب».

أُمِّي نفسها التي كانت تتحمل صراخي المفرع وهي تطهر لي جرحًا صعبًا في الطفولة، أعرف أن جروحي سيئة، لا تطيب بسهولة. وأعرف أنني لا أحتمل الألم، وكنت أحاول التملص منها تارة وأستجديها تارة أن تترك جرحي كما هو، دون أن تلمسه أو تطهره، وليحدث ما يحدث، ولكنها كانت دائمًا تصر على أن تفعل ما ينبغي عليها أن تفعله.

أشعر بالخوف لأنني لا أملك هذه القوة. أنا هشة جدًا وضعيفة أمام ألم من أحب، وجسدي يخونني في كل مرة، إما أنام أو أنهار لأهرب من كل هذا الألم.

قطعتي الصغرى أصبحت أماً قبل أسابيع، ومراقبتها تضاعف هواجسي. كنت أظن أمها مهووسة بالسيطرة حتى رأيته تكاد تجن كلما سمعت مواء قطّة في مكان ما، حتى لو في الشارع. فجأة تغير كل عالمها، بعد أن كان المبيت قرب أنفاسي هو طقسها الليلي المقدس فجأة أصبح لديها عالمها الخاص الذي لا يزيد عن مربع ضئيل اختارته بعناية لتحمي صغارها فيه.

في يومها الأول لم تغادرهم حتى لتناول الطعام، وانتظرت ساعات طويلة حتى عدت من عملي لأضع الطعام قربها. في الأيام التالية باتت تفتقدني فتطل للحظات من باب الغرفة لتطلب الوصل ثم تدخل لصغارها سريعاً.

ارتباك الأولويات لهذه الدرجة يرعيني. لا يمكنني أن أتخيل أن يتغير عالمي فجأة ليدور حول فلك قطعة أخرى مني، لكنها ليست أنا تمامًا. يفزعني مجرد تخيل ألا يكون بوسعي أبدًا أن أنفرد بنفسي وقتما أردت.

أفصح لأمي عن هواجسي فتبتسم وتخبرني أنني سأكون أمًا رائعة. ولكنني لا أخاف فقط من ألا أمنح أطفالي ما يحتاجونه من محبة واهتمام، وإنما أخاف أيضًا أن أنسى نفسي أمامهم، أن أتلاشى فلا أرى نفسي إلا من خلالهم، ثم أجد نفسي فجأة أطلبهم بأن يكونوا من لم أكنه وأن يفعلوا ما لم يسعفني الوقت لأفعله.

لهذا سأصاب بالإحباط يا رفعت لو اكتشفت أنني فعلاً تلك الفتاة التي تظهر في الصور وتبدو طيبة كأم، يراني البعض كذلك ويبدو هذا جيدًا فيقولونه كمجاملة، ولكنني في قرارة نفسي لا أريد أن أكون تلك الفتاة، أفضل أن أكون مشاغبة، مشاكسة، محاربة أو حتى شريرة ولا أكون بنتًا طيبة بذلك المفهوم السخيف لدى الناس الذي يترجمونه إلى أنني فتاة ساذجة مغلوقة على أمرها تجيد التكيف مع أية ظروف ويسهل إرضاؤها وخداعها كذلك؛ على الرغم من أنني أعرف جيدًا قدرتي على التكيف مع أية ظروف، وأعرف أن أشياء بسيطة جدًا قادرة على إرضائي، وأعرف أنني أحسن الظن بالآخرين ولكن أحقق من يظن كل ذلك سذاجة.

أتذكر مرة أن أحدهم هز رأسه بثقة العارف وأخبرني أنه يدرك تمامًا سر اختياري للقب «إيزيس» وأن هذا يدل بالطبع على أنني أفدس الأمومة واخترت إيزيس لحنوها، انتفضت كالملدوغة، لا أكره الأمومة إنما أخافها كما أخبرتك في رسالة سابقة؛ ولكن ما أزعجني أكثر هو التساؤل: كيف يغفل أحدهم عن كل ذلك الإصرار لدى إيزيس والمثابرة والإيمان بالمستحيل ويصدق جوجل الذي أخبره فقط أن إيزيس رمز الأمومة لدى الفراغنة؟ كيف يغفل أحدهم روحها المقاتلة، حتى كأم، ويختصرها فقط في أنها حنون وطيبة؟

هذه هي المشكلة دائماً، أظن طيلة الوقت أنني أشرح نفسي، ربما أكثر من اللازم، ولكن ما يصل للآخرين يكون مختلفاً تماماً عما أعنيه، وعما أنا عليه في الحقيقة، في تعليق عابر على رسالة ريم الأخيرة أخبرتها أنني أتمنى لو أن ساحرة طيبة تتكرر تريباً يمكن لكل من يشربه أن يفهم ما يقصده الآخر كما يقوله بالضبط، هل تتخيل شكل العالم لو تحققت هذه الأمنية؟

لديّ دائماً الكثير من الأسئلة عما نكون حقاً، عن تلك المسافة بين صورتنا عن أنفسنا وصورة الآخرين عنا وعن حقيقتنا بينهما، من نكون حقاً؟ قرأت يوماً عنواناً عن دراسة تقول إننا نرى أنفسنا في المرأة أجمل كثيراً من شكلنا في الحقيقة، لا أعرف هل هي دراسة حقيقية أم لا؟ ولكن ألا تتفق معي أنه أمر محزن أننا حتى لا نعرف ملامحنا الحقيقية؟ هل نرى أنفسنا أجمل لأسباب فيزيائية أم فقط لأننا متعاطفون جداً مع أنفسنا فيؤثر هذا على صورتنا في عيوننا؟ وهل حتى أولئك الذين يجيدون التواصل مع

أنفسهم - أزعجهم أنني واحدة منهم - لديهم صورة مزيفة عن أنفسهم وما يراه الآخرون منهم هو الحقيقة؟

وإذا لم تكن ذلك الشخص الذي يظنه الناس، هل هذا خطأنا لأننا لا نجيد التعبير عن أنفسنا، بالمظهر أو التصرفات أو الكلمات المناسبة، أم خطأ الآخرين لأنهم لا يبذلون ما يكفي من المجهود ليعرفونا كما نحن فعلاً؟

الوضع معقد للغاية يا صديقي، وأشعر بحاجة ماسة للمساعدة، ولكنني أعرف أنه لا أحد يمكنه مساعدتي سواي، لا أحد يعرف بدقة ما أعرف عن نفسي، عن ماضيّ ووضعي الراهن ومشاعري ومخاوفي، وما أريده الآن أكثر من أي شيء آخر. أشعر وكأنني بحاجة لاستشارة نسختي الأربعينية بشأن ما ينبغي أن أفعله الآن كي لا أفسد عليها حياتها خلال السنوات المقبلة.

منذ أسابيع تطاردني رغبة ملحة في البكاء بلا سبب، أو على الأقل بلا سبب مباشر واضح يمكن أن أفكر به، ورغبة في الاختباء والتوقف مؤقتًا عن الحياة، أشعر أن كل شيء حولي يدور بسرعة لا تسمح لي بالفهم ولا الاستمتاع ولا حتى التنفس، وبالطبع لا توجد فرصة للتوقف لحظة لالتقاط أنفاسي.

أشعر أنني أجري منذ سنوات طويلة، في البداية كنت أظن أنني أجري لهدف واضح، ولكنني الآن لست متأكدة تمامًا أنه بهذا الوضوح، أو على الأقل أنه يستحق. قبل أسابيع قالت مدربة حياتية قابلتها صدفة إن الطريق في المنتصف دائمًا ما تتسم بالفوضى والضياغ، وأنا كثيرًا ما نفقد في هذه المرحلة البوصلة ولا نعرف هل فعلاً نسعى لتحقيق حلمنا نفسه الذي بدأنا الرحلة لأجل الوصول إليه؟ أشعر أنها محقة ولكنني في الوقت نفسه لا أعرف ما العيب في أن يتغير حلمنا بمرور الوقت؟ ما كنت أحتاجه بشدة قبل سنوات وأسعى لتحقيقه كان يبدو منطقيًا جدًا، وكنت أحتاجه فعلاً،

أو لنقل كانت تلك النسخة مني تحتاجه حقًا، أما ما أحججه الآن مختلف تمامًا.

كان السعي لتحقيق الحلم القديم ضروريًا لأصل لنفسي، ولأصل لحلمي الحالي؛ ولكنني لا أعرف هل السعي لتحقيق حلمي الآن سيوصلني لأي مكان؟ أم فقط سيعود بي عشرات الخطوات للخلف.

منذ فترة لاحظت أنه في بعض الأحيان يضعك المحيطون بك على خارطة لا تخصك، يجعلونك ترغب في أشياء لم تكن في أولياتك فقط لأن هذا يحدث لجميع من هم «مثلك» وعدم الحصول على هذه الأشياء يجعلك بشكل ما متأخرًا عنهم. تدريجيًا تجد نفسك تشعر بالحاجة للحصول على هذه الأشياء فعلاً وتغضب لو أن هذا لم يحدث، على الرغم من أنك بالأساس لم تكن تريدها، شعرت بالدهشة حين وقعت في هذا الفخ، رغم وعيي التام به، ولكنني لم أملك المقاومة، ولا أعرف هل سأخرج منه أم لا.

العالم مرهق يا رفعت. تحاصرني هذه الفكرة منذ انتشر الذعر في الأسابيع الأخيرة وشل الخوف والمرض الحياة اليومية التي كانت رهاها تدهسنا بلا رحمة دون أي فرصة للوقوف لحظة لالتقاط أنفاسنا أو التفكير فيما نريد.

شعرت أن العالم منهك تمامًا مثلي، يريد استراحة من هذا الصخب والجنون المتواصل والإيقاع اللاهث للحياة بشكل يحرمنا الاستمتاع بمذاقها، ويحرمنا حتى الحياة نفسها!

لا أتمنى أبدًا أن يختبر أحد الألم، أو يفقد عزيزًا أو يعيش الخوف وتهديد فقدان حياته، ولكنني رغمًا عني وجدتني أشعر بالراحة، أحمد الله كثيرًا على تلك الهدنة التي كنت أحتاجها منذ وقتٍ طويل ولا أنالها. كنت أتمنى لو تتوقف حياتي لبعض الوقت بشكل ما، لأتمكن من لملمة شتاتي والتوقف لحظة للاستراحة، دون أن أخسر في المقابل ثمن راحتي، كنت أتمنى ولو حتى أن أقع في غيبوبة طويلة لبضعة أيام أو أسابيع كي أحظى بهذه الهدنة.

ظننت أنني أحتاج استراحة من العمل ولكن ما اكتشفته هذه الأيام هو أن العمل لا بأس به، وأن الراحة التي كنت أحتاجها هي من الحياة اليومية نفسها، من الانخراط في التفاصيل والاندماج مع البشر والاضطرار للابتسام كل يوم في وجوه الناس مهما كنت أعانى في داخلي.

بدأت عزلتي منذ تسعة أيام وحتى الآن لم أشعر بالملل، لم أشبع بعد
من حضن قططي، من الاحتواء بجدران البيت، من الاستمتاع بتفاصيله
ولا من تناول طعامه الطيب، لا أعرف إلى متى ستطول العزلة ولا أعرف
هل سأمل يوماً أم لا؟ ولكنني أشعر بالرضا لأنني الآن قادرة على التقاط
أنفاسي قليلاً دون أن أشعر أن شيئاً كبيراً ومهماً فاتني، أشعر بالرضا لأنني
أستمتع بالبقاء في المنزل دون أن يشعرني أحدهم بأنني أفوت على نفسي
الحياة خارجه أو ينظر لي باعتباري فتاة حجرية!

أفكارى مشوشة يا رفعت والصمت ثقيل، وذاكرتي خربة أكثر من اللازم لدرجة أنني لا أذكر هل هذا رقم الرسالة فعلاً أم أنني أخطأت في العدد، لا أصدق أنني لم أكتب لك منذ مارس الماضي، هل مرت فعلاً ٣ أشهر منذ أن كتبت لك الرسالة الأخيرة؟ أضعت أكثر من ساعة في البحث عن رسالة أظن أنني كتبتها، أظن أنها أعجبت صديقتي وأن هذا أكسبها مكانة مميزة لديّ ولكنني لا أجد شيئاً رغم أنني أذكر جيداً ذلك الإحساس بأنني أفرغت قلبي لديك ومضيت.

في الشهور الأخيرة عانيت كثيراً من الأرق، عانيت كذلك من النوم المرهق والأحلام الثقيلة على القلب والكوابيس التي كانت تجعلني أبكي خوفاً من النوم. جربت عشرات الحيل لأحظى بنوم مستقر وظننت السبب هو عدم خروجي من البيت لأكثر من شهر، الأمر لا يزعجني ولكنني ظننته يزعج جسدي رغمًا عني، خاصة أن كل من أعرفهم تقريباً لديهم الشكوى ذاتها. ولكنني فوجئت أن الحل أبسط مما كنت أتوقع، كل ما كان يلزمني كي أتمكن من النوم هو أن أكتب، أكتب دون أن أعبأ بمن يقرأ ولا حتى ما أكتبه، فقط حين أفرغت الفوضى في عقلي على الصفحة البيضاء أمامي توقفت الطاحونة في رأسي ونعمت بنوم هادئ خال حتى من الأحلام، وهو أمر يزعجني قليلاً لأنني أحب أحلامي الغريبة والغامضة.

أشعر بالغضب يا صديقي ممن يتكلمون بثقة وتعالٍ عن أشياء لم
يجربوها أبداً، ويحاكمون أشخاصاً لم يكونوا يوماً في موضعهم فقط لأنهم
لم يكونوا في موضعهم! يبدون حمقى ومغرورين وقساءة كمن ينكر وجود
الجوع لأنه لم يجربه أبداً ويستنكر ألم الجائع ويندهش كيف لا يستمتع
بجمال الدنيا ولا يبتسم مثلهم!

كل ما أتمناه أن يمروا بكل التجارب القاسية التي يقولون إنها لا
تستحق كل هذا الصخب، أتفهم الآن ذلك الوحش في الفيلم الذي لا
أذكره، الذي كان لا يؤذي أبداً من اختبروا الألم. ربما كان محقاً ومنصفاً
في اختيار فرائسه.

هذه الرسالة كانت مسودة مرتبكة قبل أيام، كنت أحاول أن أدفع بها شعوري بالذنب لأنني مستلقية على السرير لأكثر من ٤ ساعات أخطط للساعات الأربعة التي ضاعت لتوها نافذة الطاقة عاجزة عن الوصول حتى للثلاجة لأروي عطشي.

أمسك هاتفي، أفتح اللعبة تلو الأخرى، تنفذ كل فرصي لتكرار المحاولة، فأتصفح «فيس بوك» تستفزني صور، حكايات، آراء لا أحرك ساكنًا لأعلق عليها، أكتفي بالمرور كشبح، واستمر في التخطيط لما ينبغي عليّ أن أنهض الآن لأفعله. يصادفني تطبيق لتعليم اللغة، تطبيق آخر لتحسين التركيز وثالث للذاكرة فأهرب منهم سريعًا ليختفوا من أمام عيني، لا أريد أن أطور نفسي الآن أريد أن أربت عليها. لا أريد أن أعرف ما كان بإمكانني أن أحققه لو اجتهدت أكثر، أريد أن أرضى بما وصلت له، بالقدر الذي سمحت به طاقتي.

أتذكر حديثي مع أختي قبلها بساعات، عن جسدي الذي لا يعرف الراحة، ساقني التي لا تعرف معنى التمشية، بمجرد أن تمس أرض الشارع تهزول مسرعة حتى لو لم يكن شيئًا مهمًا ولا عاجلاً بانتظاري.

أتذكر اعترافي لصديقتي قبلها بأسابيع، أنني لا أجد الاستمتاع بسفر لأجل السفر والمتعة، أشعر بالذنب في الوقت الشاغر الذي لا أنجز فيه أي مهمة، أشعر دائمًا أنه عليّ أن أفعل شيئًا ما لأستحق أن أنفَس، وفي المقابل، يعاقبني جسدي وعقلي بتمرد طويل، بإهدار عشرات الساعات

والأيام والأسابيع في اللا شيء، أنصب الفخ لنفسي وأسقط فيه وأتعذب،
أضع خططاً شديدة الحماس والإتقان لوقتي، وأتعذب فيما بعد بطاقتي
النافذة التي لا تسمح لي بعد انتهاء العمل بأكثر من الاستلقاء في السرير
والثرثرة، كما أفعل الآن، بل إنها في أيام أخرى لا تسمح لي حتى بالثرثرة.

غمرتني السعادة يا رفعت وأنا أراقب نفسي أبتسم في موقفين كان من الممكن قبل شهور أن يشعلا أعصابي شعرة شعرة، وجدت نفسي أبتسم، ولا أبالي، أتفهم الدوافع وراء الحديث الذي يفترض أن يزعجني، أشفق كثيرًا على صاحبه، ولا أبالي لا به ولا ما وراءه، أرى في عيون بعض المحيطين عشرات الصور النمطية عني، لا تشبهني على الإطلاق، ولكنني للمرة الأولى أيضًا لا أبالي.

أدركت لحظتها أنني تغيرت كثيرًا خلال الشهور الماضية، أصبحت أشبه إلى حد كبير سارة التي كنت أحبها قبل سنوات وإن كنت الآن أقل سذاجة منها، شعرت بالامتنان تجاه كل من ساعدوني على استعادتها، حتى لو دون قصيدٍ منهم، وكل من لمحوها داخلي وأضاءوا لي الطريق لأصل من جديد إليها.

تذكرت وقتها ما حدثني عنه صديقتي ريم في رسالتها الأخيرة، وهم التأثير الواسع في الناس والنجاح المدوي، مقابل إنكار أهمية الأثر البسيط في المحيط القريب، منذ أن تخلصت من سذاجتي القديمة يارفعت تخلصت معها من هذا الوهم والحماس الساذج لتغيير العالم، أصبحت أحلم لو أن يكون لي أثرًا عميقًا / بسيطًا في دائرتي القريبة، حتى لو لم يدركوا ذلك، أتمنى لو أن أحدهم يحمل لي ذلك الامتنان العميق الذي أحمله داخلي لكل من أعرف أنهم ساندوني وساعدوني على استرداد نفسي. حتى من لم أخبرهم أبدًا كيف أثرت كلمات / تصرفات، بسيطة جدًا منهم، فيّ ورممتني في الوقت المناسب تمامًا.

«وعملت إيه فينا السنين؟!» تطاردني الأغنية بصوت وردة الشجي ولكنني لا أشعر أبدًا بالأسى، لم تكن السنوات الأخيرة سهلة على

الإطلاق، في الحقيقة لا أذكر أنني عشت سنوات سهلة، ولكن أصعب ما مررت به هو أن تدور كل المعارك في رأسي.

واجهت «آخرين» في معارك صعبة، شعرت بالخوف مرارًا ولكن في كل مرة كان التحدي يغلب الخوف، إلا في تلك المرات التي أواجه فيها نفسي.

وقفت الظروف كثيرًا بيني وبين أحلامي ولم تمنعني عنها، ولكنني شعرت بالعجز فقط حين كان كل ما يفصلني عن حلمي هو القليل من الإرادة لمغادرة السرير/ منطقة راحتي لأفعل شيئًا بسيطًا يمكنه أن يغير مسار حياتي لسنوات.

غيرتني السنوات الأخيرة كثيرًا، يراه البعض تغييرًا للأفضل ويراها آخرون للأسوأ ولكن بالنسبة لي كان - بحلوه ومره - تغييرًا مهمًا أتمنى لو أنه حدث من سنوات.

تغيرت قائمة أولوياتي عشرات المرات في السنوات الأخيرة ولكنني أظن أنه في السنوات المقبلة لن يتزحزح «السلام النفسي» عن رأس القائمة، أما التغيير الأكبر والأهم، فهو أن أتقبل نفسي كما أنا، بكل عثراتي ومخاوفي وغبابة أطواري، أن أفهم أنني لا أحتاج إلى رضا العالم عني كي أتمكن من حب نفسي وتقبلها واكتشاف جمالها، هذا التغيير أدين به بشكل كبير لهؤلاء الأصدقاء الستة الرائعين الذين عرفتهم في وقت متأخر جدًا ولا أعرف كيف سيكون شكل حياتي بعد انتهاء الرحلة القصيرة معهم، وأشعر أن كل ما كنت أحتاجه قبل سنوات هو أن أعرفهم وأن يخبروني أنه لا بأس يمكنك أحيانًا أن تكوني فاشلة أو ضعيفة أو تائهة، يمكنك أن تكوني غريبة الأطوار، أن تكوني خجولة وأن تشعر بالغيرة أحيانًا، هذا لا يمنع أن هناك من يحبونك ويقبلونك تمامًا كما أنت.

خاتمة

لا.. لم تكن الرسالة ٧٤ هي الأخيرة، ما أتمناه ألا أتوقف أبدًا عن مراسلتك يا صديقي، أن يظل بابك وقلبك مفتوحين لي، متى شئت البوح. تجاوزت مرحلة صعبة حين تخيلت يديك ممدودتين لي، أعرف أنني سأواجه مراحل أصعب وأصعب، وتغمرنني الطمأنينة حين أتذكر أنك دائمًا ستكون هنا في انتظاري، لأفاسمك مخاوفي وأفكاري وهواجسي، وأتذكر أن الكتابة ستظل دائمًا حيلتي للتعافي.

سارة

